



الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

د. نهلة الشقران

خطاب أدب الرحلات

في القرن الرابع الهجري




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



د. نهلة الشقران

خطاب أدب الرحلات
في القرن الرابع الهجري

دراسة



خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري / دراسات
تأليف: د. نهلة عبد العزيز مبارك الشّقران (أكاديمية وقاصة من الأردن)

الطبعة العربية الأولى 2015

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية الأردنية
(2014/8/3823)
ردمك: ISBN 978-9957-585-18-1



ش . الملكة رانيا ، عمارة البيجاوي ط3 ، بجانب صحيفة «الرأي»
نقال : 776724366 - 797162720 (00962) ثابت: 65620721 (00962)،
فاكس 65620722 (00962) ص .ب 713680 عمان 11171 الأردن
alaan.publish@gmail.com

المراجعة اللغوية: عبد المجيد التركي (اليمن)
لوحة الغلاف: خالد شاهين
تصميم الغلاف:بسام حمدان
التنسيق الداخلي: مجدي أبو قويدر

إلى من جعلني أُبصر الحياةَ بلونٍ ورديّ

وزرعَ في دروبي انتظارَ إشراقةِ شمسٍ أحلى..

زوجي.. حسام

«أبو هادي»

مقدمة

نشأت الرحلاتُ وتعدَّدت أشكالها، وحفظت جانباً عظيماً من الأدب والعلوم المختلفة كالجغرافيا والتاريخ، وصوَّرت واقعَ كلِّ رحالة. خاطب الرحَّالةُ ذاته قبل أن يخاطب غيره، ووصف موصوفه بدرجةٍ تُماثل تأثيره في نفسه، فشاهَدَ وعايَنَ وصوَّر، في خطاب ذي خصائص مضمونيَّة فنيَّة، وقوالب تعبيرية بنائيَّة تُعَدُّ معايير تحكمُ خطابَ أدب الرحلات.

تميَّز خطابُ أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري بطرائقه الوصفية الخاصة، فوصف الأمكنة، وخلق منها مشابهات وجدانية تجعله لا يرى المكان الجغرافيَّ، وإنما يحرِّره من أيِّ سلطة، ليبدو مزدوجاً بين الواقع والتخيُّل، فتصبح له صورة جديدة، لا تُرى إلَّا في منظوره الخاص.

عُرف هذا الخطابُ باختياراته على المستويين، المعجميِّ واللُّغويِّ، فنقل موصوفه واستحضره، كي يسدَّ به شقوقَ متاعب الرحلة، بصبغة خاصَّة يستشعرها متلقِّيه ويردُّها إليه، إذ تمثَّل آليَّاته في خطابه الوصفي، فنظر إلى العالم الخارجي وفق رؤيته الخاصَّة أولاً، ثم محدّدات الواقع ثانياً.

جاء اهتمامي بأدب الرحلات، انطلاقاً من أُطروحتي في الماجستير «رحلة ابن جبير، دراسة تركيبيّة وصفيَّة»، بإشراف الأستاذ الدكتور سمير استيتية، في جامعة اليرموك، 2006. فوجدتُ في خطاب أدب الرحلات مادة وفيرة للبحث، وفي طرائقه الوصفيَّة ما يوحي ببراعة الواصف ودقَّته، فعمدتُ إلى دراسة خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، وخصَّصتُ دراستي حول خمس رحلات تُعَدُّ الأشهَر، لأستخلص منها خطاباً موحَّداً شاعَ وتكرّر، وبرزت سماته العامة، وأصحابها: الهمداني، الاصطخري، ابن فضلان، المسعودي، المقدسي.

عُنيت دراستي بالآليَّات التعبيريَّة في خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، التي يصف بها موصوفه، باعتماد الأساليب اللغويَّة الأكثر تكراراً في الرحلات

الخمس المدروسة، لعرض رؤى الرحَّالة وتطلعاته، جرَّاء تصوير المكان وأهله.. استند تحليلي لخطاب الرحلات إلى الواقع الخارجي للموصوف، والواقع النفسي للرحَّالة، فربطتُ بينهما وفق أُسُس نظرية الخطاب.

وظَّفَ خطابُ أدب الرحلات اختياراته اللغوية، لإيصال ما يريد من رضا وقبول للمكان، أو استياء ورفض له، فجاءت مكرَّرة في الرحلة الواحدة، وفي الرحلات المدروسة كلِّها.. برز التكرار سواء أكان في اللفظ أم في المعنى، واتَّخذ إطاراً عامَّاً يحدِّد هذا الخطاب، ويصبغه بصبغةٍ لغويَّة تجعله ميدانَ دراسةٍ لم تُطرق من قبل، بشكلٍ مخصوصٍ، إذ انصبَّ جُلُّ اهتمام الدراسات السابقة على فائدة الرحلات من النواحي التاريخيّة، والجغرافيّة، والدينيّة، والسياسيَّة، والإنسانيَّة، ولم تدرس دراسات لغويَّة خاصَّة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» لكراتشكوفسكي (1957)، و«أدب الرحلة عند العرب في المشرق» لعلي محسن عيسى مال الله (1978)، و«الرحلة والرحَّالة المسلمون» لأحمد رمضان أحمد (1980)، و«الرحلة عين الجغرافية المبصرة» لصلاح الدين الشامي (1982).

أمَّا خطةُ هذا الكتاب، فاعتمدت فيها ما اقتضته ضرورةُ المنهج وطبيعةُ الموضوع، فجاء في ثلاثة فصول هي:

الفصل الأول: الرحلات في القرن الرابع الهجري.

الفصل الثاني: أبنية الخطاب في أدب الرحلات

الفصل الثالث: آليَّات الخطاب في أدب الرحلات.

الفصل الأول

الرحلات في القرن الرابع الهجري

دواعي الرحلة

عاش العربُ في بيئة صحراوية، تحنو عليهم حيناً، وتقسو عليهم أحياناً، فتضطرهم إلى الترحال والتنقُّل المستمر، فأوجد هذا الأمر في أنفسهم ميلاً إلى البحث الدائم بأشكاله المختلفة، كالبحث عن الكلأ، والمرعى، والأهل، واللغة، والمال، وغير ذلك. فَأَلِفوا الترحالَ واعتادوه، وأصبح بذلك استقراراً لهم ومنهجَ حياة.

عرف العربُ، إثر ذلك، الطُّرُقَ البرية والبحرية في مناطقَ متعدِّدة، فسهَّل عليهم الأمر الاشتغال بالتجارة كرحلة قريش وغيرها من القبائل في الجزيرة العربية، صيفاً وشتاء، إلى بلاد الشام واليمن، وكان لهذا النشاط التجاري أثره النفسي، علاوةً على أثره المادي، ويتجلَّى هذا الأثر في مسلكيْن مهمَّيْن هما:

-الاطِّلاع على ثقافات الآخرين، وعلاقاتهم الإنسانية، ووصفها، ومقارنتها، وانتقادها.

- رسم مخطَّط عمراني في مخيلة المتنقِّل لما شاهد أثناء تنقُّله، سواء أقصد ذلك أم لا.

ومن الطبيعي أن ينعكس الأثر النفسي-بمسلكيه- على المجتمع العربي كلِّه شغفاً بنقل التأثُّر بالبلدان وأهلها من جهة، والاعتداد بالثقافات الجديدة التي حصل عليها المتنقِّل من جهة أخرى.

أصبح المتنقِّلُ مُحمَّلاً بالأخبار والمعلومات الوفيرة في مجالات متعدِّدة، منها الطريف والغريب، ومنها التاريخي والجغرافي، ومنها «المتوحِّش والشَّاذ عن قوانين الطبيعة، فأخذ يصبح تدريجياً مدارَ تأمُّل أعمق ومقارنة بين الشعوب»[1]. من هذا التصوُّر بدأ التوجُّه إلى الرحلات، والنظر إليها شيئاً مستقلاً له طابعه الخاص.

ظهرت، إذن، ملامحُ الرحلات، بغضِّ النظر عن أهدافها، وعَظُم شأنُ العربي المتنقِّل، واتَّصل بالعالم من حوله إثر التوسُّع السياسي، وانتشار العرب في مناطق بعيدة، فكان لهذا

(1) أدب الرحلة والتواصل الحضاري، سلسلة الندوات، ص 29.

التوسُّع «أثر بالغ في السياحة، واتِّخاذها وسيلةً للدراسة والوقوف على ما في تلك المناطق من عجائب وغرائب»[1]، ومما لا شكَّ فيه أن التوسُّعَ السِّياسي تأثَّر بمجيء الإسلام وانتشاره في مختلف بقاع العالم.

ظهر الفكرُ الإسلامي، وأثَّر بالرحلة، فكان داعياً قوياً من دواعيها، وأسهمت الفتوحات الإسلاميَّة في انتشارها مع انتشار رقعة الدولة الإسلاميَّة، فخرج العربُ من جزيرتهم وطافوا بأركان العالم الوسيط، في آسيا وإفريقيا، واتَّسعت آفاقُ تنقُّلاتهم، وكَثُرت مشاهداتهم، فأدَّى ذلك إلى تنمية الفطرة العربية على التنقُّل، وتبلور هذا الحسُّ متَّخذاً نسقاً خاصاً، وأصبح طريقاً يُحتذى حذوها، يضيف إليه كلُّ متَّبعٍ له معلماً حتى تكتمل صورته.

نشأت الرحلاتُ وتعدَّدت أشكالها في ظلِّ «الأمن والطمأنينة في ديار المسلمين، وفرض النظام في ربوعها، وإشاعة هيبة الدولة في ما وراء هذه الديار، في أنحاء واسعة من جزيرة العرب»[2]، فكان هذا أهم دعم تطلبه الرحلة، دون النظر إليها، إن كانت هادفة أم هاجسة تُسيِّرها نزعة ذاتية خاصة.

بناءً على ما سبق، سنُجمل تأثير الفكر الإسلامي في نشوء الرحلات في العوامل الآتية:

أولاً: اهتمَّ الإسلام بالعلم، وحثَّ على طلبه[3]، إذْ بعدما توسَّعت الدولة الإسلامية بشكل سريع، وتعدَّدت أقاليمُها المناخية والتضاريسية، اتجه المسلمون، إثر ذلك، يطلبون علوم الدين والدنيا مهما بَعُدت المسافات.

فما وجدوا أنفسهم إلَّا وجهاً لوجهٍ أمام الرحلة، فلم يُسجِّلوا العلم في مدوَّناتهم وحسب، بل سجَّلوا أيضاً سيرَ طرقهم، وما واجهوه من طبيعة وطبائع، وحفظت الذاكرة المكان، وما يتعلَّق به قبل العلم المبتغى.

(1) أدب الرحلات، أحمد أبو سعد، ص 18.

(2) الفكر الجغرافي، سيرة ومسيرة، صلاح الدين الشامي، ص 127.

(3) انظر: أصول البحث الجغرافي، سيد أحمد، ص 24. وانظر الفكر الجغرافي نشأته ومناهجه، صبري الهيتي، ص 50.

ثانياً: اتجه المسلمون لتأدية فريضة الحج من شتى بقاع العالم، فوصفوا طرق الحجاز ومسالكها ومخاطرها[1]، وأكثروا من وصف المقدَّسات الإسلاميَّة.. والحقيقة أن الأراضي المقدسة حظيت باهتمام الجغرافيين أكثر من غيرها[2]، نظراً لتعلُّقها الديني والروحي بشخص الرحَّالة.

ثالثاً: حثَّ الإسلام على السياحة لأسباب متعددة، مثل التأمُّل في المخلوقات، والاتِّعاظ من آثار الأمم البائدة، والتعرُّف على المظاهر الكونيَّة المختلفة. ولم يشجِّع الإسلامُ على السِّياحةِ فحسب، بل سهَّل على المسافرين العبادات، كالصوم والصلاة [3]، فجعلهم يقبلون على الأمر بيُسرٍ وسهولة.

رابعاً: أصبح للرحلة بعد نشوء الإسلام ضرورة سياسية وعسكرية، فاتِّساع أطرافها وامتدادها، من حدود الصين شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي غرباً، أوجب على ذوي الأمر احتياجَهم للرحَّالة، ومن اعتاد السفر، وألِفَ الطُّرقَ من أجل معرفة أخبار الأقاليم الخاضعة لهم على وجه السرعة؛ «لذلك عنيت الدولة بنظام البريد، فمهَّدت الطُّرقَ له، وشيَّدت المحطَّات، وأقامت على الطُّرقِ معالمَ تبيِّن المسافات»[4]، حيث تتصدَّى لنقل الرسائل، وتوصل التعليمات بين أرجاء الدولة وخارجها.

وسعت إلى تأمين استقرار وسلامة الحياة[5]، فاتخذت الرحلات وسيلةً من وسائلها في ذلك بالاطِّلاع على الدول المحيطة من جهة، وبالتنقُّل المتواصل بين أطراف الدولة الواحدة لدرء الخطر وإحباطه من جهةٍ أخرى.

خامساً: أضاف الإسلامُ إلى قائمة الرحلات المتنوَّعة ما يُسمَّى برحلة السفارة، وهي

(1) انظر تطور الفكر الجغرافي، رينينه كلوزييه، تعريب عبدالرحمن حميدة، ص 48.

(2) انظر الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، عيسى علي إبراهيم، ص 70.

(3) انظر أدب الرحلة، حسين نصار، ص 4.

(4) المصدر السابق، ص 5.

(5) انظر الرحلة عين الجغرافية، صلاح الدين الشامي، ص 47.

«رحلة المسؤولية والتكليف، ووضع التعليمات موضع التنفيذ أكثر من أيِّ شيء آخر، لمصلحة عامة مشروعة لحساب الإسلام والمسلمين، تعمل بموجب التكليف من ولي الأمر»[1]، لنقل مبادئ الإسلام، وتعليم فرائضه من داخل الجزيرة العربية إلى خارجها[2].

نشأ هذا الصنف من الرحلات بأوامر رجال الحكم في الدول الإسلامية في العصور الوسطى للمفاوضة بين أقطارهم وأقطار أخرى أجنبية في مسائل تجارية أو حربية أو لإبرام معاهدات صُلح[3].

سادساً: عرفت الدولة الإسلامية النظام والإدارة وتشكيل الحكومة، وكان لها مدنيَّتها الخاصة، فلم تعد الصحراءُ هاجسَها الأول، بل أمسكت بزمام الانفتاح على العالم من حولها، والسعي وراء كلِّ ما هو جديد، فوظَّفت الرحلة في خدمة مبتغاها.. و«لأن الرحلةَ في البرِّ أو البحر بعيدة المدى، وتكلفتها عالية، والعائد منها ثمين، فلقد تحمَّلت الدولة وبعض أصحاب المصلحة مسؤوليات تمويل الرحلة، في مقابل تكليفها بأداء المهمَّة أو المهام المنوطة بها»[4]، فازداد عدد الرحلات وكَثُر المرتحلون، بل ربما توجَّهوا على شكل فرق متخصِّصة من أصحاب الخبرة.

وأخيراً، مهَّد الإسلام طريق الرحلة، وأمَّن احتياجاته، ابتداءً من رحلات الفتوحات الإسلامية، وانتهاءً برحلات العصر الحديث التي سارت على نهج سابقيها، ووجدت به معيناً لا ينضب، فكان الداعي الأول لنشوء الرحلة.

أما الداعي الثاني للرحلة فيتمثَّل في نشوء علم الجغرافيا، والاهتمام به، فهل كانت الرحلة حسّاً فطريّاً تفجَّر في الإنسان بإبصار الجغرافيا، أم أن علم الجغرافيا نشأ نتيجة الحسِّ الفطريِّ الذي أيقظته الرحلة؟

---

(1) المصدر السابق، ص 114.

(2) خير مثال لهذه الرحلات رحلة ابن فضلان التي سيتم عرضها.

(3) انظر مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس، محمد صالح المراكشي، ص232.

(4) انظر الرحلة عين الجغرافية، صلاح الدين الشامي، ص 48.

نعم، يبدو أن الرحلة وراء نشوء علم الجغرافيا، فحقَّقت هدفاً كبيراً من أهـداف حركـة الحياة على الأرض، فإن قَصُرت مسافاتها أو طالت جنى الإنسان ثمراتها وانتفع بهـا، ونقلـت له ما شاء وما لم يشأ، وصوَّرت له أحداثاً ربما كان من الصعب عليه تخيُّلها، وجعلتـه يبصـرُ الكونَ من جديد بعين ترى الطبيعة رؤية متفحِّص، وترى الإنسانيَّة رؤية ناقد، وترى التاريخ رؤية مفكر.

كانت الملامح الجغرافية من الأسس المهمة التي قـام عليهـا أدب الرحلـة، لهـذا وصـف الرحَّالون المدن، والطرق، والأنهار، والبحار، والجبال، والمناخ، والطبيعة، ومـا إلى ذلـك. في الوقت الذي نشأت فيه كتب جغرافيـة متخصِّصـة، تسـير وفـق مـنهج علمـي وطريـق شـبه موحَّد، يبعدها قليلاً عن الرحلة، ويجعلها ضمن مسلك جغرافي بحت.

رسم عالم الجغرافيا المكان وصوَّره أحسن التصاوير، وظهر علم الخرائط وسيلة مسـاندة له في هذا الأمر، أمَّا الرحَّالة فأعاد رسم جغرافية المكان بطابع ذاتي. فللجغرافي غايته العلميـة في كشف الكون، وللرحَّالة غايات ذاتيَّة تحكمه، تجعله جغرافياً حينـاً، وأديبـاً حينـاً، وإنسـاناً أحياناً كثيرة.

الإنسان الذي وُلد راحلاً-كما يرى « شوقي ضيف»[1]- أحـبَّ الأرض، وأعطاهـا كـي تعطيه، وشُغل بها وبخباياها، ليوظِّف حسَّه الفطري في التنقُّل، وحدسه الجغرافي الفطـري في انتخاب الموطن واختياره.

إذن، فرحلة العربي الأولى من أجـل التعـايش انبعثـت مـن تفحُّـص جغـرافي للمكـان، وطاوعته، ومن ثمَّ عرفت اختيار الموطن الأنسب[2] في بيئة الجزيـرة العربيـة الصـحراوية. في الوقت نفسه كان لعلم الجغرافيا شأن خاص في الرحلة، فاصـطحبته في طرقهـا المختلفـة بـراً وبحراً، وفي تعدُّد المناخات التي عايشها، واستأنست به، وأوكلت إليه مهمة المعاينـة والرؤيـة الفاحصة.

انتفعت الرحلة بالجغرافيا، ووجدت المعرفة الجغرافية وراء الرحلة معيناً زاخراً تتزوَّد

(1) انظر الرحلات، شوقي ضيف، ص7.

(2) انظر المصدر السابق، ص 27.

منه[1]، فطاف الجغرافيون بالعالم الإسلامي وغيره، وقيَّدوا مشاهداتهم، وما يقع تحت أبصارهم، واعتمدوا الرحلة في جمع معلوماتهم الجغرافية لحرصهم وأمانتهم، ووصفوا المسالك والممالك، ميدانياً، دون الاكتفاء بالنقل والرواية عن الآخرين إلَّا في مواضع قليلة، وظهرت طلائع المؤلفات الجغرافية في صدر الإسلام إثر التوسُّع السريع للدولة الإسلامية[2]، وتعدُّد أقاليمها.

ظهر الإنتاج الشخصي في التأليف الجغرافي وتفرَّعت اتجاهاته الوصفيَّة والاجتماعيَّة والفلكيَّة والإقليميَّة، «وأصبحت المعرفة الجغرافيَّة في خدمة متطلبات الدولة الإسلاميَّة الكبرى، عسكرياً وإدارياً واقتصادياً»[3].

وفي القرن الرابع الهجري يظهر نضوج الفكر الجغرافي، ويبدو ذلك في رحلات هذا القرن وتميُّزها عن غيرها، إذ بلغ عدد الرحَّالة في هذا القرن ما لم يبلغه في غيره، «فأُتيح للمسلمين أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات، والاكتشاف، والدراسات الجغرافية، وأفادت أوروبا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى»[4].

و«ابتداءً من القرن الرابع الهجري تعدَّدت هذه الأسفار الاستكشافية، وازداد أفق الجغرافيين الوصفيين اتِّساعاً، كما ازدادت معلوماتهم دقَّة ووضوحاً»[5]، فاهتم الجغرافيون بأقاليم العالم الإسلامي، ووصفوها في كتبهم، وظهرت خرائط «أطلس الإسلام» عند كلٍّ من: البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي، وسُميِّت بذلك لأنها تغطِّي أقاليم العالم الإسلامي بسلسلة من الخرائط التي تتماشى مع التقسيم الجغرافي الذي ابتدعه هؤلاء، مخالفين بذلك التقسيمات السابقة، فمَثَّل «أطلس الإسلام» قمَّة علم المصوّرات عند العرب[6]،

(1) انظر الفكر الجغرافي، عيسى إبراهيم، ص 64- 67.

(2) انظر أصول البحث الجغرافي، سيد أحمد سالم، ص 24.

(3) في الجغرافيا، شاكر حصباك، ص 10.

(4) الفكر الجغرافي، الهيتي، ص 48.

(5) أعلام الجغرافيين العرب، عبدالرحمن حميدة، ص 73.

(6) انظر المصدر السابق، ص 59؛ وانظر الفكر الجغرافي، الهيتي، ص 59-60.

وتعدَّدت مناهج وصف الرحلات إثر ذلك، لاتِّضاح تكامل الأنماط في المصنفات الجغرافية.

في هذا القرن اهتمَّ الجغرافيون المسلمون بوصف ما شاهدوه، فأدخلوا تقليداً جغرافياً جديداً في الكتابة الجغرافيَّة، وهو استخدام الخريطة مع المتن، لتوضيح التفصيلات الواردة فيه[1]، وتظهر هذه المرحلة في كتب المسالك والممالك لابن حوقل والبلخي والاصطخري، فهم جغرافيون وصفيُّون أو رحَّالة علميُّون كما يرى شاكر خصباك[2]، حقَّقت الرحلة لهم أشكالاً من التعامل والتعايش والاختلاط بالناس، علاوة على التفاصيل الجغرافيَّة الدقيقة. ويرى علي الدفَّاع أن هذه الرحلات أسفار للمعاينة الميدانيَّة[3]، فهي دراسة علميَّة ميدانيَّة بطابع لغويٍّ أدبي.

«سار الجغرافيون المسلمون خطوات عظيمة، إلى حدٍّ أنَّ مؤلفاتهم عُنِيَتْ بالجانب الثقافي، والأمور الاجتماعيَّة، ويبدو واضحاً فيها تقرير خطوط العرض والطول لأماكن عديدة، فضلاً عن تلك المادة الوفيرة في مسالك السير والطرق»[4].

مع ذلك لا يفترض أن يكون كلُّ جغرافيٍّ رحَّالةً، وأن يكون كلُّ رحَّالةٍ جغرافيَّاً، فالاجتهاد الشخصيُّ كان المحرِّك الأول لكلٍّ من الرحلات والجغرافيا، وتعدَّدت أشكاله. فمن اجتهاد أديب لغويٍّ، واجتهاد جغرافيٍّ وفلكيٍّ، واجتهاد تاريخيٍّ وإنسانيٍّ، واجتهاد رحَّالة هاوٍ.. «وقد تنطوي الكتابة في الرحلة على خلط بين الحقيقة الجغرافيَّة والحدث التاريخيِّ والسلوك الاجتماعيِّ، وقد يتمادى الخلطُ في الكتابة التي تسجِّل حكاية الرحلة، حتى تستغرق أحياناً في ذكر الغرائب والعجائب التي تستهوي الكاتب»[5]، ويحكمه في هذا الأمر ذوقه وميوله واهتماماته، «رغم أن هذا لا ينفي حقيقة التشابه الكبير في بعض الأمور،

(1) انظر في الجغرافية، شاكر خصباك، ص 11، والفكر الجغرافي، الشامي، ص 210.

(2) انظر المصدر السابق، ص11.

(3) انظر رواد، علي الدفاع، ص 52.

(4) الفكر، نفيس احمد، ص 51.

(5) الرحلة عين، صلاح الدين الشامي ص 148.

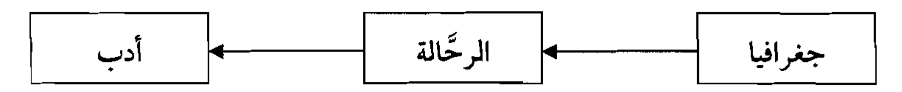
لأسباب سياسيَّة ودينيَّة واجتماعيَّة يخضع لها الرحَّالة»[1].

ومن فضل الرحلة أنها حفظت جانباً عظيماً من الفكر الجغرافيّ إلى جانب ما حفظته من التاريخ والأدب[2]، بل إنها أولت العناية بالجغرافيا على التاريخ والأدب، وساعد الرحَّالةُ المسلمين في تقديم الجغرافيا[3].

مزجت الرحلة بين العلم والأدب، فمثل العلم بمظاهر الكون المذكورة في صفحاتها بكثرة، وبالحدث التاريخيِّ والاجتماعيِّ والدينيِّ الذي أحاط المعلومة الجغرافيَّة وساندها. أما الأدب فيبدو فيها جليَّاً شاء الرحَّالة أم أبى، يخرج رحلته من مهاد علم الجغرافيا، وينتهج لغة الأدب الجغرافيَّة، ويصف بحسِّ الرحلة الفطريِّ، ولا يغفل الجزئيات الدقيقة التي يسقطها على ذاته، قبل نقلها وتصويرها، فيصالح المكان مع تاريخه هو، ويقدِّمه بمنظور خاص، مع الحفاظ على إطاره العام.

تتجلَّى، أيضاً، الروح الأدبيَّة في مظاهر الخيال المجسَّدة في الرحلة، فيطعِّم أحداثه بحكاية هنا ورواية هناك، بلغة السرد والحوار[4]، وتسلسُل الأحداث وحبكها، فسيشعر قبل أن يكتب، ويتأثَّر قبل أن يُؤثِّر، ويعايش قبل أن يصف.

يمكننا أخيراً أن نوضِّح صلة الجغرافيا بأدب الرحلة في الشكل الآتي:



يأخذ الرحَّالة مادته الجغرافية، ويعرضها بأسلوب أدبي

---

(1) فكر، صبري الهيتي، ص 48.

(2) انظر الرحلات، محمد الخضر حسين، ص 16، يرى أن الرحلة حفظت جانباً عظيماً من التاريخ والأدب دون أن يتطرَّق إلى الجغرافيا.

(3) انظر الجغرافيا عند العرب، البشير صفر، ص 62.

(4) انظر السيمولوجيا وأدب الرحلات، لطيف زيتوني، ص252.

حصاد الرحلة

ظهر حصاد الرحلة في القرن الرابع الهجري، واكتملت ملامحه، وتنوَّعت أشكاله، فحمل القوالب التصويرية الكثيرة للزمان والمكان والإنسانيَّة، مما جعل نفيس أحمد[1] يرى أن العهد الأصيل والمثمر للجغرافيا الإسلاميَّة ينقضي عند انتهاء المؤلفات المصنَّفة في القرن الرابع الهجريِّ، ويبدو أنه قصد الجغرافيا الإسلاميَّة المعتمدة على الرحلة، فالكتابة في القرن الرابع الهجريِّ اعتمدت بشكل كبير على المشاهدة الشخصيَّة والحسِّ، ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات وندرة الإحصاءات[2] عند الجغرافيين، إن لم نقل انعدامها.

مثَّل الجغرافيون العرب في هذه المرحلة مدرسة خاصة بهم، اتَّسمت بطابع الأمانة العلميَّة، باعتمادها الرحلة سبيلاً في توثيق معلوماتهم، فعرَّفوا العالم، شرقه وغربه، في أقطار الدولة الإسلاميَّة خاصة، ووصفوها أحسن الوصف وأدقَّه، فأرسوا بذلك قواعد الجغرافيا الوصفيَّة والدراسة الميدانيَّة التي جاءت في ما بعد.

هذا الأمر جعل الجغرافيا تختلط بالرحلات -كما ذكرت- واستمرَّ الاتصال بينهما مدة لا يُستهان بها عند معظم الجغرافيين. أمَّا من انتحوا الرحلة وحسب، فكانت جغرافيتهم بشريَّة أكثر منها طبيعيَّة، ويبدو أن أنواع الرحلة تعدَّدت في القرن الرابع الهجريِّ، وتبلورت في الأشكال التالية:

1. رحلات اعتنت بأقطار العالم الإسلاميِّ ووصفت بلدانه وجغرافيَّته وأهله، ومزجت بين الجغرافيا الوصفيَّة والعلوم الأخرى كالتاريخ، وعلم الإنسان، واللغة، وعلوم الدين، وما يمثلها كتابات البلخي، والاصطخري، وابن حوقل، والمقدسي.

---

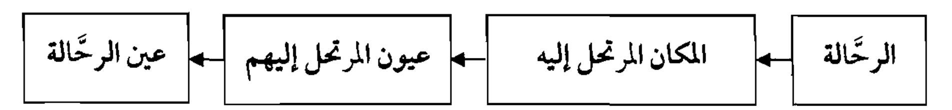
(1) انظر فكر، نفيس أحمد، ص 52.

(2) انظر الجغرافيا والرحلات عند العرب، نقولا زياد، ص13، نقلاً عن متز آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

2. رحلات متخصِّصة في قُطر واحد، جغرافياً وعُمرانياً وإنسانياً، كالهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب».
3. رحلات تاريخيَّة أكثر منها جغرافيَّة أو إنسانيَّة، وقد عُنِيَ أصحابها بالجانب التاريخيِّ، وتدوين القصص والأخبار أكثر من عنايتهم بوصف المشاهدة المباشرة، وخير مثال لها المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف».
4. رحلات إنسانيَّة اهتمَّت بوصف عادات الناس وسلوكهم، وعُنِيَ أصحابها بالتحليل الدقيق لما شاهدوه، فاحتوت ملامح علم الإنسان وبذوره، ومثالها «رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والخزر والصقالبة».

الرحلات، إذن، لها طبيعة وصفيَّة تقرِّبها حيناً من الجغرافيا، وتبعدها عنها أحياناً أخرى، بفرضها على منتهجها نظاماً وصفيّاً، يجعله يمرُّ بعيون البشر قبل زوايا المكان، ثم ترتد الرؤية الوصفيَّة لبؤرتها في مخيِّلته، قبل تسجيل الحدث، وكأننا أمام شبكتين بصريتين[1]، الأولى: متمثلة بالمكان المرتَحل إليه وأهله وزمانه، والثانية: متمثلة بالرحَّالة وما علق به من المكان والأهل والزمان.

يمكن توضيح المسألة بالشكل الآتي:



يتمثَّل حصاد الرحلة في نهاية الأمر بعين الرحَّالة نفسه، ونقل سطوة المكان أمام سطوة مخيِّلته، حتى يتضاءل تاريخ المكان في معظم الأحيان أمام تاريخه الشخصيِّ الذي يحرِّكه، ويقوده في وصفه لما يرى، «فالرحَّالة لا يقدِّم المكان الجغرافيِّ، بل يقدِّم المكان من خلال منظوره الخاص»[2]، ورغم أن الرحَّالة يصف أمكنةً ومسالكَ، إلا أنه ينتهج لغةَ خطابٍ من

(1) انظر الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، عبدالرحمن مُودّن، ص271.

(2) المصدر السابق، ص 60.

نوعٍ مَّا بينه وبين المكان، قد لا يحسُّ بها إلَّا من التمس حصاد الرحلة عن قرب، وعايش اللفظ.

وسنُجمِلُ حصاد الرحلة في النقاط الآتية:

أولاً: اشتملت الرحلات على الوصف المكانيِّ، وألقت الضوء على جغرافيَّته، فأكثرت من وصف التربة، والمياه، والطقس، والتضاريس.

ثانياً: لم تهمل الرحلات أهمية المكان بأحداثه التاريخية ومذاهبه الدينيَّة، فاستشعرت جانب الأمان بالتاريخ والدين، وأرست ترحالها في دعائمها، وتمسَّكت بنشرهما في ثنايا الرحلة.

ثالثاً: حرَّكَ الحنينُ إلى الوطن أحاسيسَ الرحَّالة، فجعله يصف ما يرى، ويقارن- دون أن يعي- المرئي بما أَلِفَه واعتاده، ويبدو ذلك عند حديثه عن الطقوس، والعادات، والسلوك، فكثيراً ما يذكر استياءه، ويصف شعوره، ويُنصِّب نفسه حكماً على ما يرى.

رابعاً: أكثر الرحَّالة من أساليب التفضيل المختلفة، فكثرة التطواف جعلته يفاضل بين ما يرى من أمكنة، ومعابر، وطرق، ومعالم. فكرَّر الألفاظ التفضيليَّة نفسها كثيراً، وامتلأت الرحلات بألفاظ «أكبر وأجمل، وأوسع، وأشدّ، وأصفى..... إلخ».

خامساً: رافق هاجس الخوف الرحَّالة في تجواله، فإن اعتاد الترحال ووجد مبتغاه فيه إلَّا أنه لم يسلم من مخاطر الطرق ومصاعبها، فجعلته تجربة السفر يُكثر من ذكر الحصانة والمناعة، وينظر إلى المعالم نظرة متفحِّص، ويبحث عن الأمن والاستقرار، فاهتمَّ بوصف البلدان إن كانت مأهولة ومسوَّرة ومحصَّنة، وما إلى ذلك.

سادساً: أدَّت الرحلة أثرها في الكشف الاجتماعي، فقارنت بين النُّظم الاجتماعيَّة لدى البشر، «الأمر الذي جعل المؤرخين يرون أن تلك المعرفة قد وضعت الجذور الأولى لمادة الإثنوجرافيا»[1]، فاعتناؤها بالنظم الاجتماعيَّة، أو علم الإنسان، أو علم الجغرافيا البشريَّة أكَّد

(1) أدب الرحلات، حسين فهيم، ص 22.

الإثنوجرافيا: كلمة معرَّبة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات، والقيم، والأدوات، والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة خلال فترة زمنية محددة، المصدر نفسه، ص 49.

حقيقةً مؤدَّاها أن الرحلة كشفت العالم والإنسان، فوقفت على أحوال كثير من الأمم والشعوب، وقد حاول الرحَّالة في بعض الأحيان تحليل وتفسير ذلك وربطه بالبناء الاجتماعي، دون أهدافٍ علميَّةٍ محدَّدة[1].

وبعد هذا العرض المجمل لحصاد الرحلة في القرن الرابع الهجري، سأذكر أصحاب الرحلات الخمس التي قامت عليها هذه الدراسة:

1. الهَمْداني (280- 334 هـ)

هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني، سُمِّي ابن الحائك[2]، ولسان اليمن، ويُسمِّيه ياقوت في معجم البلدان (ابن الدمينة) نسبةً إلى جدِّه ابن أبي الدمين[3].

أقام في مكة مدة، اتجه فيها لرواية الحديث وكتابة الفقه، ثم عاد إلى اليمن، فنزل صعدة (قاعدة أئمة الزيدية)، ولم تطُل إقامته بها، إذ دخل في نزاع مع شعرائها أدخله السجن، ثم توفي في سجن صنعاء، ضحية مكائد خصومه[4].

اشتهر الهمداني بعلوم كثيرة منها النحو والأدب والتاريخ والجغرافيا وعلوم الأرض، وتفنَّن في الأدب الشعبي القديم في جنوب جزيرة العرب، ويرى كراتشكوفسكي أن مصنَّفه (الإكليل) خير دليل على سعة معارفه، ويعتبر اشبرنجر رحلته «صفة جزيرة العرب» إلى جانب كتاب المقدسي أقْيَمَ ما أنتجه العرب في الجغرافيا[5].

احتوت رحلته معلومات عن الظواهر الطبيعية للجزيرة العربية، ولسكانها،

(1) انظر إسهامات بعض الرحَّالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة، أحمد الربابعة، ص30.

(2) تاريخ الأدب الجغرافي، كراتشكوفسكي، (1/ 170).

(3) يقال إن جده كان شاعراً فسُمِّي حائكاً لصوغه الشعر، ويبدو أن خصومه أطلقوا عليه هذا الاسم، انظر أعلام، حميدة، ص 291- 292.

(4) يورد حمد الجاسر في المقدمة أنه توفي بعد هذا التاريخ انظر ص31.

(5) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، 1/ 170.

ولمحصولاتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، ولمعابرها البريَّة والبحريَّة، وقدَّم الكاتب معلومات أصيلة عن اليمن لم يسبقه إليها أحد[1]، فلم يستند إلى النقل من السلف، بل كان يجوب أركان الجزيرة العربية، يبحث فيها، ويدوّن ما يراه من أسرارها.

لم يكن الهمداني رحَّالة وحسب، ولا جغرافيَّاً وحسب، بل هو متعدِّدُ الثقافة والمعرفة، له اطلاع واسع بالأنساب والتاريخ والآثار، علاوة على تملُّكه ناصية المادة الأدبيَّة[2] بدقَّة وصفه وجمال تعبيره.

2. ابن فضلان

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد، كان مولىً لأحد العباسيين، لا يعلم المؤرِّخون شيئاً عن حياته، ولكن مما لا شكَّ فيه أنه ارتحل سنة 309 هـ إلى بلاد البلغار، والحقُّ أن لهذه الرحلة شأناً عظيماً؛ لأن ابن فضلان كان رسولاً للخليفة العباسي المقتدر بالله (295- 320 هـ) في بعثة إلى ملك البلغار، بعد أن أسلم، وكتب إلى الخليفة بذلك كتاباً يسأله أن يرسل إليه من يفقِّهه في الدين[3]، فأرسل الخليفةُ أحمدَ بن فضلان رئيسَ بعثةٍ إلى ملك الصقالبة.

بعد عودته إلى بغداد وضع كتاباً في وصف رحلته إلى القوم، وألَمَّ إلماماً دقيقاً بأحوالهم وعاداتهم ومعتقداتهم، ولم يصف شعب البلغار وحده، بل وصف أيضاً الخزر والروس.

تُعَدُّ رحلة ابن فضلان أثراً طريفاً من آثار عصره، فهي تُقدِّم صورة حية للظروف السياسيَّة في العالم الإسلاميِّ، والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المجاورة لها[4]، ويعدُّها شوقي ضيف رمزاً لرحلات العرب في أوروبا[5].

(1) انظر المصدر السابق، 1/ 170.

(2) انظر المصدر السابق، 1/ 172.

(3) انظر رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، ص32-33.

(4) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، 1/ 186.

(5) انظر رحلات، شوقي ضيف، ص50.

وُصِفَ ابن فضلان بالذكاء والحنكة السياسية[1]، وعُرِف بأسلوبه القصصيِّ السلس الذي لا يخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعابة التي ربما لم تكن مقصودة[2].

طُبعت الرحلة مرتين[3] بنقص ملحوظ فيها، ويزعم سليمان المدني أنه وجد تكملة الرحلة، ويؤكِّد ذلك في كتابه «أكلة لحوم البشر، عن مخطوطة لابن فضلان»، فيخلط ما حقَّقه سامي الدهَّان، مع ما وجده ظناً منه أنه بذلك سدَّ الثغرات في النسختين[4]، ولكن ما جاء به ليس سوى رواية لروائيٍّ أمريكيٍّ، اعتاد مزج التاريخ بالخيال والأسطورة، لجذب القرَّاء إليه، ولا يخفى على قارئ كتاب المدني أنه يحوي فكراً ولغة لا تمت لأدب الرحلات بصِلة.

وقع حيدر غيبة في الخطأ نفسه عندما أصدر كتابه سنة 1994، بناءً على رواية مايكل كرايتون (Eaters of the Dead)[5]، فظنَّ أنها صورة للمخطوطة الضائعة، ويبدو أن رحلة ابن فضلان في طبعة كرايتون المزعومة خلت من الفقرات الخاصة بزيارة بلاد الصقالبة التي هي الهدف الأساسي من مهمَّة ابن فضلان، وكذلك الجزء الخاص بزيارة بلاد الخزر، وكلاهما موجود في الطبعة العربية (طبعة مشهد) التي حقَّقها الدهَّان، وفي الوقت ذاته خلت الطبعة العربية من زيارة ابن فضلان لبلاد الشمال المعروفة باسم (اسكندنافيا)، ووجدت عند كرايتون بمغامراتها المثيرة ومعلوماتها الوفيرة، وهذا الجزء يشكِّل نحو ثلاثة أرباع حجم الرحلة الأساسي.

هذا الأمر أوقع حيدر غيبة بخطأ اعتبار الرواية الخيالية لكرايتون مخطوطة جديدة عثر عليها لابن فضلان، إذ التقط كرايتون شيئاً من التاريخ، ونسج منه خيالاً واسعاً، ويبدو أنه يلجأ إلى ذلك كثيراً في كتاباته.

---

(1) انظر رواد، علي الدفاع، ص87 .

(2) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، (1/ 186)، ويبدو أن علي مال الله في كتابه «أدب الرحلات» التبس عليه الأمر، واعتقد أن المقصود (الدعاية) فيعلق قائلاً: «فلم أجد هذا الضرب في الدعاية التي أشار إليها الكاتب سواء أكانت مقصودة أو غير مقصودة» أدب الرحلات، علي مال الله، ص 105.

(3) طُبعت المرة الأولى في دمشق سنة (1959)، وأُعيدت طباعتها المرة الثانية سنة 1972.

(4) انظر أكلة لحوم البشر، سليمان المدني، ص23.

(5) انظر مجلة ديوان العرب، www.DiwanalArab.com.

3. الاصطخري

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، يُعرف في بعض الأحيان باسم الكرخي، ترجع تسميته إلى اصطخر بفارس[1].

زار معظم البلاد الإسلامية، فألَّف كتابه «المسالك والممالك» بناءً على مشاهداته، تميَّز كتابُه عن غيره بكثرة الخرائط التي استخدمها كوسائل إيضاح[2]، فسُمِّي «دليل الرحَّالة الجغرافي»[3].

درس الأراضي وأبعادها ومراكز العمران فيها، ووصَف المسطَّحات المائيَّة في العالم والحدود والمساحات، فكان أول من قسَّم الأرض عشرين جزءاً[4] منفصلاً بذلك عن بطليموس.

يقودنا الاصطخري إلى علَمَين آخرين من أعلام الرحلة في القرن الرابع الهجري، هما البلخي (ت 307 هـ)، وابن حوقل (ت 336 هـ)، إذ يُعدُّ الأول «رائد مدرسة البلدانيين الخرائطيين» المساهمين في أطلس الإسلام، وقد أرسى بذلك أساس سلسلة جديدة من المؤلفات الجغرافيَّة المشتملة على خرائط»[5].

ألَّف كتابه «المسالك والممالك» الذي تضمَّن الأشكال أو صوَّر الأقاليم، ولكن هذا الكتاب المهمّ لم يصل إلينا، إلَّا أن مضمونه وصل برواية الاصطخري[6]، ويبدو ذلك من الاسم المشترك للرحلتين.

يقول كراتشكوفسكي: «وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن بعض المخطوطات التي

(1) انظر رواد، علي الدفاع، ص 103.

(2) انظر دراسات في الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي، فتحي محمد أبو عيانة وآخرون، ص 290.

(3) الجغرافيا، نقولا، ص 32.

(4) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ص 198.

(5) فكر، هيتي، ص 61، سبق ذكره «أطلس الإسلام».

(6) انظر فكر، الشامي، ص 242، والجغرافيا، نقولا، ص 21.

نُسِبت في فهارس المخطوطات أو حتى في الأصل إلى البلخي إنما تمثَّل في الحقيقة مسوَّدات لمصنَّف الاصطخري أو ابن حوقل»[1]، فربما كانت رحلة البلخي وهمية أو أنها حقيقيَّة تناولتها صفحات الضياع إلَّا أن المعلومات وافيةٌ عن صاحبها[2].

أمَّا ابن حوقل، فيُعتقد أنه راجَعَ للاصطخري نصوصاً وخرائط، بناءً على طلب الاصطخري نفسه، لثقته بخبرته الكبيرة التي اكتسبها في رحلاته العديدة، عندما لقيه سنة (340 هـ)، ثم طلب منه الاصطخري أن يعيد النظر في كتابه كلِّه، ففعل ابن حوقل ذلك[3].

إذن، كتاب ابن حوقل «المسالك والممالك» أو «صورة الأرض» في حقيقته مستمدٌّ من الاصطخري، إلَّا في بعض الإضافات القليلة أو التصويبات في مجال رسم الخرائط، ولا تختلف مقدمة ابن حوقل كثيراً عمَّا ذكره الاصطخري في مستهلِّ كتابه، إلَّا في بسط القول وإيضاحه بصورة أكبر»[4].

يقول عبدالرحمن حميدة: «نستخلص من مقارنة كتاب ابن حوقل بكتاب الاصطخري أن الأول يدين للثاني بأكثر مما يعترف به، فقد أخذ عنه مخطَّطَه، فضلاً عن فصول برمَّتها»[5]، ويرى علي مال الله الرأي نفسه[6].

4. المسعودي (287-346 هـ)

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرِّخ، من ذريَّة الصحابي عبدالله بن مسعود، أكثر الكتاب الجغرافيين أصالة في القرن الرابع الهجري، كما يراه كراتشكوفسكي،

(1) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، ص 1/ 199.

(2) انظر المصدر السابق، 1/ 199- 200.

(3) انظر فكر، الشامي، ص 244، ودراسات فتحي، ص289.

(4) فكر، هيتي، ص 62.

(5) أعلام، حميدة، ص 211.

(6) انظر أدب الرحلات عند المشرق: نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، علي محسن عيسى مال مال الله، ص 121.

فهو مرتكز يُرجع إليه في تحقيق الأخبار، ومراجعتها»[1].

زار معظم أجزاء الدولة الإسلامية، فغطَّت رحلاتُه جميعَ الأقاليم، وقد ارتحل وهو في ريعان شبابه رحلات طويلة واسعة، واستمر ذلك نحو خمس وعشرين سنة، فسجَّل في مؤلفاته ما شاهد وما سمع وما قرأ[2]، فخرجت مؤلَّفاتُه كاملةً في شكل دائرة معارف في معظم فروع المعرفة[3]، «فلم يكن رحَّالة يحبُّ الاستطلاع فحسب كالمقدسي، بل كان أيضاً عالماً»[4].

أمَّا مُصنَّفه «التنبيه والإشراف»، فيظهر فيه مادة جغرافيَّة بالمعنى الصحيح، بالقياس إلى كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» الذي يُعدُّ كتاباً تاريخيّاً بالدرجة الأولى، ولم يغفل عن التاريخ في «التنبيه والإشراف»، لكنه جمع فيه بين التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران، فهو «يتضمَّن معظم ضروب العلم في عصره، ويمتاز على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من أخبار الأمم التي كانت تحيط بالعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وبندرة هذه الأخبار»[5]، فجاء كتابه، إثر ذلك، بعيداً نوعاً ما عن التنظيم، لاشتماله على معارف كثيرة.

احتوت الرحلة مادة ضخمة جمعها في فترة زمنيَّة قصيرة، ويبدو أنه لم ينتقِ ممَّا جمع، بل أورد كلَّ خبرٍ سمعه، وكلَّ حادثٍ شاهده، هذا ما جعله مؤرِّخاً أكثر منه رحَّالة يميل إلى اللغة السلسة المألوفة. فيرى كراتشكوفسكي أسلوبه «وإن كان لا يرقى إلى مصاف الأدباء المتخصِّصين، غير أنه يمتاز بمسحة أدبية جيدة»[6].

(1) انظر تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، 1/ 177.

(2) أنظر أعلام، حميدة، ص 309.

(3) انظر رواد، علي الدفاع، ص 114.

(4) انظر أعلام، حميدة، ص 310.

(5) فكر، هيتي، ص 51.

(6) تاريخ الأدب، كراتشكوفسكي، 1/ 185.

5. المقدسي (335- 390 هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، من بيت المقدس بفلسطين، وإليه يُنسب[1]، اعتمد في كتاباته على رحلاته الواسعة التي غطَّت جميع أقاليم العالم الإسلامي، باستثناء الأندلس والسند[2]، عُرف عنه حب الترحال، والتنقُّل، والبحث عن المعرفة.

«أعاد المقدسي تقسيم العالم إلى أربعة عشر إقليماً وأفرد لكلِّ إقليم خارطة. فهو، إذن، يخالف تقسيمات سابقيه عن قصد، إذ لا يتبع التقسيم إلى سبعة أقاليم أو عشرين إقليماً، ويختار لتقسيماته الجديدة عدداً من المبرِّرات والأسس الجغرافية عن طبيعة بشريَّة»[3]، وهذا يدلُّ على ثقته الكبيرة بنفسه، ومحاولته إبرازها وتميُّزها.

وتأكيداً لما سبق، نجده في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» يذكر غير مرة فضل هذا الكتاب على كتب الآخرين، ويفتخر ويعتدُّ به، ويبدو ذلك أيضاً من عنوان كتابه.

يقف المقدسي موقف الناقد أحياناً من السابقين له في مجاله[4]، وهذا الأمر لا يقلِّل من شأن رحلته، إذ تختلط فيها الجغرافيا بالأخبار، والعمران، وأحوال الناس.

جاء كتابه مُنظَّماً مُبوَّباً، له طابعٌ علميٌّ دقيق[5]، يرسم به الخرائط ويحدِّد الطرق، ويصوِّر الأقاليم بمنهجيَّة واضحة؛ لذا حقَّق شهرة عظيمة، إذ يُعدُّ مصدراً ضرورياً لكلِّ باحثٍ في علم الجغرافيا بوجه عام ومفهوم الأقاليم بوجه خاص، علاوة على استفاضته لنواحي الحياة الاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والفكريَّة بدقَّة وعناية بالغتين[6].

كانت الأسفارُ هوايتَه، والرحلاتُ سبيلَه، فلم يبخل بوقت أو جهد أو مال من أجل

(1) انظر الرحلات، شوقي، ص 15.

(2) انظر دراسات فتحي، ص 295.

(3) فكر، هيتي، ص 65.

(4) انظر كراتشكوفسكي، تاريخ، ص 210.

(5) انظر الرحلات، شوقي، ص 15- 16.

(6) انظر رواد، علي الدفاع، ص 125- 126.

تحقيق غايته، فيقال إنه أنفق عشرة آلاف درهم في ذلك[1]، مّما جعل عبدالرحمن حميدة يرى أنـه يعمد في رحلاته إلى التنكُّر وتغيير اسـمه، والـدخول في الطوائـف المختلفـة، كـي تسـنح لـه الفرصة دراسة بيئاتها، والوقوف على عاداتها وأحوالها[2]، لشدة ولعه بالرحلات، وتعلُّقه بها.

يُعتبرُ المقدسيُّ خاتمةَ الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغـت أوجهـا في القـرن الرابع الهجري، وهو في رأي المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصـورهم[3]، ويذكر بعض النقاد أن كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجريّ كانت الذروة التـي بلغها العرب في وصف البلدان، فاعتبر آدم متز كتابه ذروة ما وصلته كتب الجغرافيـة العربيـة من تقدم في وصف البلدان[4].

(1) انظر أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، محمد رشيد الفيل، ص 15.

(2) أنظر أعلام، حميدة، ص 255.

(3) انظر رحلات، شوقي، ص 15.

(4) انظر في الجغرافية العربي، شاكر حصباك، ص 377.



الفصل الثاني

أبنية الخطاب في أدب الرحلات



أبنية الخطاب في أدب الرحلات

أنشأ أدب الرحلات خطاباً خاصاً يُعَدُّ موروثاً تاريخياً، ونتاج الاستعمال الاجتماعي الطويل المدى. ويُظهِر هذا الخطاب طابعاً نفسياً عاماً، تشير آليات خطابه إليه، ويبدو سمة بارزة لأدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، دون تخصيص لرحَّالة معيَّن. ويُظهِر أُطراً لغوية محدَّدة، تتميَّز بشقَّيها: التركيبيّ والدلاليّ، في تعبيريَّة لها نسقها الخاص.

هذا النسق هو مبتغى علماء الخطاب، وهدفهم الأول، وعلى الرغم من أن مفاهيم الخطاب ومصطلحاته قد تعدَّدت عندهم، فإنهم لم يختلفوا في أنه يبحث في نظام نسقيٍّ معيَّن يكشف عن بنية خاصَّة للنص[1].

عرَّف هاريس- رائد تحليل الخطاب- الخطابَ بأنه «ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تُكوِّن مجموعة منغلقة، يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجيَّة التوزيعيَّة»[2]. فللخطاب نظام خاص، يترجمه منهجُ منتجه، ويسعى محلِّلو اللغة إلى كشف هذا النظام، لإيضاح رسالته، وبيان أساليبها اللغوية.

سعى علماء الخطاب إلى «وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصيَّة بمستوياتها المختلفة، وشرح الظواهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة»[3]، فالعمليَّة التواصليَّة لا بد أن يتحقَّق فيها وجود العناصر الآتية:

1- **المرسل**: وهو المتكلِّم أو الكاتب الذي ينتج الخطاب.

2- **المتلقي**: وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقَّى الخطاب.

3- **الموضوع**: وهو مضمون الخطاب الذي يريد المرسل إيصاله للمتلقِّي والهدف منه.

4- **القناة**: وهو وسيلة وصول الخطاب.

5- **المقام**: وهو زمان ومكان الخطاب، ومراعاة حال المتلقي[4].

---

(1) انظر تحول الخطاب النثري في عهد النهضة، أحمد ياسين، ص 14.

(2) تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، ص 17.

(3) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص248.

(4) انظر تحليل الخطاب، بروان ويول، ص 40/ 48.

لكلِّ أسلوب من أساليب الخطاب سياقاتٌ تؤدِّي وظائفَ محـدَّدة، تسـاعد عـلى تأويـل الخطاب وفكِّ رموزه، وتميِّز بين خطاب وآخر، فتقدِّم لمحلِّل الخطاب مفتاحَ تبويب النصوص وتصنيفها، ليعبر قنواتها ويحلِّل رسائلها.

تتحكَّم عمليَّة التواصل بالتأليف بين الجمل والسياقات التي ترد فيهـا، والكشـف عـن الروابط الداخليَّة في النص[1]، والروابط المقاميَّة خارج الـنص، لتتجـاوز النظـام إلى كيفيـات الاستخدام، ولتنطلق من الجملة إلى الفقرة إلى النص متكاملاً، فإذا تجـاوزت حـدود الجملـة، فإنها لا تهملها، بل تجعلها بؤرتها التي تنطلق منها في تحليل الخطاب.

بناءً عليه، يعتمد تحليل الخطاب إلى وحداته الأساسـية عـلى مجموعـة مـن الأبنيـة التـي تُصنَّف وفق مستويات ثلاث هي:

1- **البنية العليا**: ويُقصد بها نوع الخطاب والهيكل العام له[2]، أي جنسـه الأدبي وإطـاره الشكلي الخاص، فالخطبة مثلاً تشمل مقدمـة، وعرضـاً، وخاتمـة. وهـذا وصـفٌ شـكليٌّ لهـا. فالنصوص يستدعيها واقع معيَّن أو وجهة نظر معيَّنة من منتجها، بيد أنها تدور في فلَكٍ معرفيٍّ محدّدٍ، وإن اختلفت أشكالها.

2- **البنية الكبرى**: وهي تُعدُّ تمثيلاً تجريديَّاً للدلالة الشـاملة للـنص، فمتتاليـات الجمـل التي تمتلك أبنية كبرى هي وحدها التي تُسمَّى من الوجهة النظريـة نصوصـاً[3]؛ لأنهـا تحـدِّد الموضوعات والقضايا التي يتناولها الخطاب، وسمَّى جريماس البنيةَ الكـبرى «البنيـة العميقـة الدلاليَّة والمنطقيَّة»[4] ويرى فان دايك (van daik) أنها ذات طبيعة دلاليَّة، كما أنها مشـروطة بمدى التماسك الكليِّ للنَّص، لذلك فهي خاصَّة بمضمون النص، بينما الأبنيـة العليـا خاصَّـة بشكل النص[5].

(1) انظر علم لغة النص، سعيد بحيري، ص 102- 105.

(2) انظر الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، خليل بن ياسر البطاشي، ص 113.

(3) بلاغة الخطاب، صلاح فضل، ص 255.

(4) علم لغة النص، سعيد بحيري، ص 124.

(5) انظر المصدر السابق، ص130.

يُكوِّن النص أبنية كبرى مُتضامًّا بعضها إلى البعض[1]، وقد تكون بنية كبرى واحدة وفقاً لمجموعة القضايا التي يناقشها، ويرجع الأمر في ذلك إلى ثقافة المحلِّل، أو المتلقِّي مع اعتماد القرائن الواضحة التي تدلُّ على القضايا الأكثر جوهريَّة في مضمون النص من غيرها.

3- **البنية الصغرى**: وهي الوحدات النصيَّة المترابطة بعلاقات نحويَّة، فهي أبنية المتتاليات والأجزاء[2]؛ أي الجُمل المتجاورة. «وتصبح الجُمل المتتالية متماسكةً دلاليّاً عندما تقبل كلُّ جُملةٍ فيها التفسير والتأويل في خطٍّ داخليٍّ، يُعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في المتتالية»[3]. والنظر إلى الجملة الواحدة في المتتالية يُعدُّ تفسيراً نسبيّاً للنصِّ بتفسير بعض أجزائه التي تدلُّ على محتواه.

وتتضافر الأبنية السابقة في عمليات الاتِّصال، لتحدِث إبداعات لغوية متباينة. وتكمن الوظيفة المرجوَّة منها في تماسك الخطاب وترابطه، وتسهيل عمليتي الفهم والتفسير.

سنتحدث عن أبنية خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري بالنظر إلى البنيتين: الصغرى والكبرى. أمَّا البنية العليا فإنها تكشف قالباً عاماً لنصوص كثيرة تندرج ضمنه، وتنحِّي السمات غير المشتركة بينها من الدراسة. وإن تشابه خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري في بعض الأمور، فإنه يبقى رهينةَ ميول منتجه وذوقه اللغوي، بحكم تعدُّد أسباب الرحلة، وتنوُّع المرتحلين، وتغاير أشكال اللغة، فمن العسير تخطيط طريق خطابيٍّ مشترك، في حين أننا نستطيع استخلاص أبنية عامة مشتركة لها اتصالٌ بالقولبة والمضمون. فلو نظرنا مثلاً إلى الشعر الجاهلي لوجدنا أن بنيته العليا تتمثَّل بالمقدِّمة الطَّلَلية، وما فيها من غزل وعاطفة، ثم وصف الرحلة والراحلة، ثم موضوع القصيدة. أما في أدب الرحلات فنرى أن الرحَّالة -أياً كان هدفه من الرحلة- لا يرى إلا الوصف، بأيِّ قالب لغوي كان، فهو يصف حتى الهواء والتراب، وكأن الوصف تشرَّب لغتَه لدرجة جعلته لا يعي أيَّ قولبة غيره.

تختلط المعارف المختلفة لتكون حصيلة هذا الخطاب، بينما تطغى ثقافة الرحَّالة، ويتحكَّم بناصية لغته كما يشاء. فهو مرة تاريخيٌّ وأخرى جغرافيٌّ، وكثيراً من المرَّات فقيهٌ ومحدِّثٌ

(1) انظر بلاغة الخطاب، صلاح فضل، ص 256.

(2) انظر المصدر السابق، ص 255.

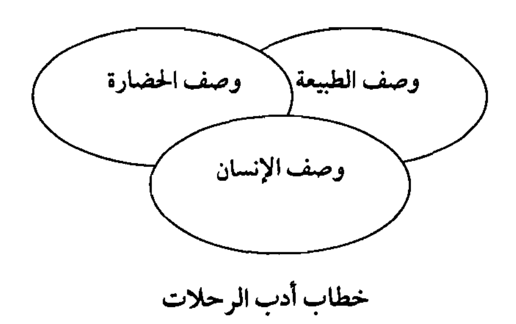
(3) علم لغة النص، سعيد بحيري، ص 128.

وحكيمٌ، يمزج القصة بالحدث، ويروي الخيال ملتحماً مع الحقيقة، وتختلف إثر ذلك الهيكليَّة العامة لهذا الأدب.

إن الأبنية الكبرى إجابة حول تساؤلنا عن موضوع الخطاب وماهيَّته، إذ تبيِّن مجموع القضايا التي يناقشها ويعالجها. ولو نظرنا إلى الرحلات في القرن الرابع الهجري لوجدنا أنها لم تعالج إلَّا ثلاث قضايا، ألا وهي وصف الطبيعة، ووصف الحضارة، ووصف الإنسان. إذ تشير أبنيتها الصغرى إلى هذه القضايا، وفق توالٍ نسقيٍّ خاصٍّ يكوِّن نصوصها، فتشكِّل تلك القضايا دلالةً شاملةً لأدب الرحلات، لا تُعدُّ تمثيلاً له في هذا القرن فحسب، بل تصبغه بصبغة دلاليَّة عامة.

تعتمد عملية تحديد الأبنية الكبرى لنصٍّ ما على مجموعة من العمليات الإدراكيَّة وهي: الحذف والاختيار والتعميم، والتركيب[1]، فهي مفاهيم مجرَّدة، تبيِّن كُليَّة الخطاب ووحدته، كما تعدُّ افتراضاً يحتاج إلى وسيلة توضِّحه، وتجعله مقبولاً، لذلك يسلك القارئ أو المحلِّل الاختزال لمعرفة البنية الكُليَّة؛ أي يُلخِّص ما يريد المرسل قوله، ويحذف، ويختار، ليصل إلى موضوع الخطاب، فتختزل المعلومات الواردة فيه. ولو طبَّقنا الأمر على خطاب أدب الرحلات لما وجدنا إلا الوصف، هذا الوصف نواته الأبنية الصغرى المتسلسلة جنباً إلى جنب؛ كي تكوِّن خطاباً متماسكاً كما يرى علماء الخطاب.

إذن، فالبنيتان الكبرى والصغرى تتشاكلان في خطاب أدب الرحلات؛ من أجل وصف الطبيعة، والحضارة، والإنسان، وسيتضح في المباحث الآتية بيان ذلك، كما يشير الشكل الآتي:



خطاب أدب الرحلات

(1) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص 44-45.

وصف الطبيعة

شغلت الطبيعة الرحَّالة، وكانت هدفه الأوَّل في أثناء تنقُّلاته، فأسقط عليها إحساس المغترب؛ ليألف المكان ويعتاده، لكنه لم يجد نفسه بين خباياها إلَّا واصفاً يقارن بين الطبيعة المتغيِّرة من بلدٍ إلى آخر، وبين طبيعة المنشأ.

اهتمَّ بالمياه والبحار والآبار، وذَكَرَ التربةَ وخيراتها بإسهاب، ولم تغفل نظرته الجغرافية عن وصف المناخ والهواء، فبدت أبنية الوصف مقولبة مكرَّرة، ضمن إطارٍ حدَّده الرحَّالة لنفسه والتزم به، ويظهر هذا الأمر في اعتماد الأنماط التالية:

1. الوصف بالاسم.
2. الوصف بالفعل.
3. الوصف بالأداة.

يراوحُ الرحَّالة بين الأنماط، للحديث عن طبيعة المكان المرتحل إليه، ووصفه، فيلجأ حيناً إلى الوصف بالفعل، لدلالةٍ معيَّنةٍ يريدها، وحيناً آخر إلى الوصف بالاسم، لمبتغىً وهدفٍ يراه، ويعمد إلى الأدوات، فيحمِّلها ما يريد أحياناً كثيرة، إذ تبدو الأوصاف في تراكيب مقولبة معيارية التزم بها الرحَّالة، وسار على دربه من زامَنَه، أو جاء بعده. ولا أزعم أن هذه القولبة ابتدأت في القرن الرابع الهجري وتخصَّصت به، بل هي امتدادٌ لما سبق، أخذت معالمها تتضح، لما تأصَّل من أدب الرحلات، وبرزت فيها نزعة التنقُّل الأولى، فعاينت الطبيعة ونقلتها، بعين الرحَّالة المبصرة التي تلتقط المكان وتصوِّره، قبل أن يلتقطها.

تالياً التراكيب الأكثر شيوعاً في الرحلات المدروسة، وفقاً لموضوعها.

- **وصف المياه**

وصف أدب الرحلات المياه بأشكالها المختلفة، من آبار وأنهار وأعيُن، وصوَّرها بتراكيبَ لغويةٍ عديدةٍ، فكانت مرافقةً له في كلِّ مكانٍ يرتحل إليه، نظراً لتصويرها طبيعة

المكان، ومصادره الطبيعية، سواء أكان معتمداً على نفسه، أم على غيره في ذلك.

جاء الوصف بالاسم، وبالفعل، وبالأداة، كما يتضح في ما يأتي:

- **الوصف بالاسم**

أكثر خطاب أدب الرحلات من الوصف الاسمي لمصادر المياه، وذلك لإثبات أهمية وجودها بالنسبة للرحَّالة المتنقِّل من مكان إلى آخر، وحاجته الشديدة لها، لذلك لم يهمُّه الحدث كثيراً مقارنة مع أهميَّة وجود المصدر نفسه، وفي استخدام الأداة تدعيم هذا الوجود أيضاً.

وفي الجداول الآتية يبدو تصنيف الأوصاف:

الاسم	التركيب
(كثير)	كثيرة الآبار م[*] 101
	كثيرة الأنهار م 6، 277، 244
	كثرة الأعين م 218
	كثرة أنهارها م 263
	مياه أملاح كثيرة هـ 293
	فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة ص 23
	كثيرة المياه م 215، 322، هـ 290
	كثير الغيول والمآجل والمسايل[1] هـ 136
	وادٍ كثير الماء والمطاحن هـ 225
	كثير الماء هـ 289
	مياه كثيرة ص 153

(*) اعتمدت الرموز الآتية للإشارة إلى الرحَّالة:

م: مقدسي، هـ: همداني.، ع: مسعودي.، ص: إصطخري.، ف: ابن فضلان.

(1) المآجل: بغير الهمز، وجمعه مواجل، وهو يشبه البركة وفيه عمق وسعة.

(قليل)	كثير من مياه تهامة أملاح هـ 356
	وهي قليلة الأنهار جداً ص 107
	ماء جارٍ **قليل** ص 152
	وهو نهر **قليل** العرض ف 168
(غزير)	غزير المياه م 276، م 326
	غزير الأنهار م 299، 254، 215
	غزيرة الماء م 100
	قناة غزيرة م100
	مياه غزيرة م 101
	ماء غزير م 298، 248، 252، 390
	غزير المياه م 258، 265
	عيون غزيرة م 358
	غزيرة المياه رحبة م 164
	الماء بها غزير م 100
(واسع/ ضيق) (خفيف/ ثقيل)	فتكون منها العيون الغزيرة م 42
	واسعة المياه م 244
	ضيقة المياه م 258
	ماء خفيف م250
	خفيفة الماء م 165، 268
	خفيف الماء م 162
	لا آبارهم بالخفيفة م 356
	ماء بيسان **ثقيل** م 183
	والأنهار الفائضة إليه م243
	نهر جارم172

	قلّما تخلو سكّة أو دار من نهرٍ جارٍ ص 165
(جارٍ)	ماؤها جارٍ ص 136
	وماء جارٍ م 138
	ماء شبيه بالبحر غير جارٍ ف 137
(صحيح)	ماؤهم غير صحيح م 360
	صحة الماء م 272
	صحيح الماء م 144
(بعيد/ قريب)	آبار ومياه بعيدة منهم ص 30
	آبارهم قريبة م 258
(مالح)	ماؤها مالح ص 170، 75
	آبار مالحة م 353
	وهي مياه أملاح قذرة هـ 294
(عذب) وما يرادفه	عذب هـ 136
	عذبة الماء م 126
	ماء عذب هـ 296
	فإن مياهها طيبة عذبة جارية ص 63
	مياه عذاب هـ 294
	ماؤها عذب فرات هـ 361
	ماؤها عذب يُشاكِلُ ماءَ السماء ولا يغيض هـ 305
	وعَذُبَ ماؤها فصار فراتاً هـ 317
	مياه الآبار حلوة قريبة المستقى م 357
	قناة صغير عذيبية م 353
	ماؤها بارد ع75
	صلاح الماء والهواء ع 54

	آبارهم حلوة م 101، 352
	آبار حلوة م 102
	ماؤها كالزئبق ع 80

- **الوصف بالفعل**

الفعل	التركيب
(يجري) وما يرادفه	إليه يجري الماء م274
	تجري خلال أقاليمهم الأنهار م 243
	الماء يسطع جانبيها م 257
	الماء يضرب الحائط م 216
	يعظم ماؤه ويكثر ع 72
	يحيط البحر به هـ 99
	فيسقي جميع ما حفّ به إلى البحر هـ 121
	المياه تتخلّله م 327
(يُحمل)	يُحمل إليهم الماء من بدر م 100
	يُحمل إليهم الماء من بعد م 103
	يُحمل إليهم الماء في المراكب م 190
	يُحمل لهم من آبار ومياه بعيدة منهم ص 30

- **الوصف بالأداة**

الأداة	التركيب
(في)	فيها عينُ ماءٍ جارٍ ص73
	في المدينة مياه جارية ص 76
	فيه عيون ضعيفة م187

	في كل بيت ماءٌ جارٍ م 252
	فيها أودية كثيرة هـ 154
	فيه العيون والآبار هـ 236
	فيه هـ 237
	فيه مياه كثيرة هـ 290
	في بطن منيم مياه أملاح كثيرة م 293
	فيها ماءٌ جارٍ وبساتين ص 140
(ل)	لهم مياه كثيرة وضياع عريضة ص 125
	له نهرٌ جارٍ م 172
	لها نهرٌ عظيم ص 187
	لهم ماءٌ جارٍ يدخل في المدينة م 48
	لهم مياه وأشجار كثيرة ص 151
	له/ لها ماء جارٍ ص 153، م 268
	لهم مياه جارية في دورهم ص 154
	لها ماء وبساتين قليلة ص 151
	ومطعمهم ماء لهم هـ 312
	لهم ماء وبساتين كثيرة ص 151
	لها مياه جارية غزيرة م 268
	لهم عين ماء تجري للشرب ص 154
(بِـ)	بها ماء قليل ص 24
	بكند نهر يجري وسط الأسواق م 245
	بها عين عجيبة م 264
	بها ماءٌ جارٍ م 248، 328، 325
	به أودية من مظاهر همدان هـ 157

	بها عينُ ماء ص 137
	شربهم من نهر / لنهر/ من أنهار م 252، 329، 360، 380، 379، 267، 257
	مشربهم من آبار م 213، 216، 218، 268، 354
	مياههم/ ماؤهم من الآبار ص 78، 104، 122
	مياه رساتيقها من الآبار ص 99
	ماؤه/ مياههم من السماء ص 54، 46، 23
	مياه نخيلهم وزرعهم من الآبار ص 23
	ماء أهلها من عين تجري لهم ص 24
	ماؤهم للشرب من جيجون ص 167
(من)	مياههم من الأمطار والآبار ص 152
	ماؤها من القني/ قني ص 154
	سقيتهم وشربهم من نهر عظيم ع 73
	مشاربها من شرفات ذي جرة هـ 151
	منه شربهم ص 174
	شربهم من عيون فيه/ من أعين م 76، 218، 329
	شربهم من ماء جار م 216
	شربهم من قني م 355، 357، 381، 379، 377
	شربهم من قني ظاهرة على وجه الأرض م 360
	شربهم من آبار مالحة وبرك م 303
(لا)	لا ملح ولا عذوبة هـ 293
	لا ماء فيه هـ 254

	لا مياه جارية م 268
	لا أعرف به ماءً رديًا م 148
(ليس)	ليس بها زرع ولا شجر ولا ماء ص 30
	ليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع ص 46
	ليس بها نهر ولا بئر ولا عين ص 136
	ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ص 46
	ليس بينها ماء ردي م 148
	ليس بهم آبار تشرب ص 23

يبدو مما سبق اعتماد التكرار في خطاب الرحلات، إذ يندرج ضمن الأساسين الآتيين:

أ- تكرار الموضوعات.

ب- تكرار الألفاظ.

هذا التكرار هو المسؤول الأول عن تفرُّد أدب الرحلات، وتميُّز خطابه، فهو الإطار العام الذي يحدِّد القضايا التي شغلت الرحَّالة، ويبرز ما واجهه من احتياجات أو رغبات أو معيقات.

لم تأتِ الموضوعات والألفاظ المكرَّرة عشوائياً، بل إن الرحَّالة كان يعتمد مبدأ الانتقاء بوعي منه لما ينتقي ويكرِّر، لتعزيز ما يريد ترسيخه في الأذهان، فلو لم يكرِّر لما استطاع أن ينقل تجربته العميقة، وأن يثير الإحساس لدى المتلقِّي.

عدَّ علماءُ الخطابِ التكرارَ (Recurence) من وسائل السبك (Cohesion)[1]، فإعادة المعنى بألفاظ مختلفة، تعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة متماثلة في طابعها العام، ومتغايرة في دلالاتها، فيرسل المرسل بوساطتها رسالته، ويعبِّر عن تفاعله مع ما يرى، باختيار الصور اللغوية الملائمة، فيجعلها موافقة لما يشعر به إزاء كلِّ موقف.

(1) النص والخطاب والإجراء، روبرت بوجراند، ص 301.

والتكرار هو دلالة اللفظ على المعنى مردَّداً، فقد قسَّمه[1] العلماء إلى تكرار مفيد وغير مفيد، بناء على اللفظ والمعنى مجتمعين، أو بالنظر إلى أحدهما دون الآخر. ومما لا شكَّ فيه أن المرسل إذا أتى بتكرار دون فائدة مبتغاة فقد أضعف خطابه، ويكمن الدور الأكبر لمتلقي الخطاب في أن جانباً خفيّاً للفظة المكرَّرة، أو أن ثمة تأثيراً نفسيّاً وقع فيه مرسل الخطاب إثر تكريره للألفاظ أو المعاني.

لا بدَّ، إذن، أن يكون للتكرار إيحاءٌ معيَّن في الخطاب، بغض النظر عن مستوى وصول ذلك للمتلقي وإدراك خلفياته، وبوجوده يحقِّق نوعاً من أنواع التماسك أو الاتِّساق الخطابي، فهو مظهر من مظاهر اتِّساق الخطاب، ويراه علماءُ الخطاب وسيلةً نحويةً للربط بين عناصر في النص، بإعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصر مؤلَّف أو اسم عام[2]، وعند النظر إلى ما سبق من ترادف أو شبهه فإننا نجد مثلاً المفردات: (عذب، لطيف، بارد، حلو، صاف، طيب، صحيح) تدور حول المعنى نفسه، لما تحويه من اتِّفاقٍ بادٍ في وصف الماء.

وهذا المعنى يبثُّ فيه الرحَّالة حاجتهم الخاصة إثر تنقُّلهم من مكان إلى آخر، وشعورهم بالعطش الشديد- وهو المطلب الأول للجسم- لذا تراهم يتلاعبون بمفردات وصفه ويختارونها مريحة للسمع، كما أراحهم الماء عند الشرب بتكرار الحرفين الشفويين (الباء، الفاء) في «عذب، بارد، لطيف، صافٍ، طيب»، فمن النظرة الأولى يبدو عذباً لطيفاً بارداً، ممَّا يجعل الرحَّالة يستعذبون اللفظ إثر استعذاب الماء، ولحرفي (العين، الحاء) دورهما أيضاً في هذا التكرار المعجمي، فخروج النَّفَس الطويل عند نطقهما، يجعل الرحَّالة يصلون إلى الراحة المرجوَّة بشرب الماء، فيقولون: «عذب، حلو، صلاح».

أمَّا باعتبار النظر إلى البنية الصرفية، فإننا نرى تنوُّع صيغ أسماء الفاعلين والصفات

(1) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، 3/ 8.

(2) انظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي، ص 24.

المشبَّهة، فإن كان الماء بارداً في هذه اللحظة وصافياً، فهو عذبٌ وطيِّبٌ في كلِّ اللحظات، فالمغايرة بين البنيتين الصرفيتين تؤكِّد طيب الماء وتميُّزه، إذ يعكس باللفظ راحته، وتلذُّذه. والمصدر كما في (صلاح) يُؤكِّد ثبات الماء على وضعه الحسن، وعدم تغيُّره، وترسيخ وصفه.

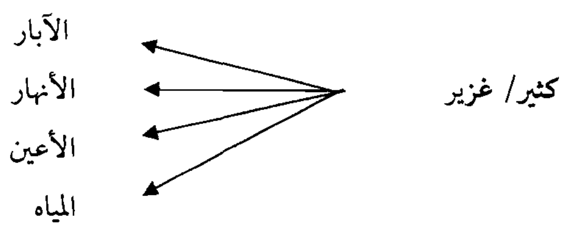
يقودنا التكرار السابق إلى نوع مقابل له وهو (التضام)[1]، بتوارد أزواج من الكلمات بالفعل أو بالقوة تربطها علاقة ما، ويسهمان في نصية الخطاب وتماسكه كالأزواج الآتية:

(حلو – مالح) (كثير – قليل)

(بعيد – قريب) (خفيف – ثقيل)

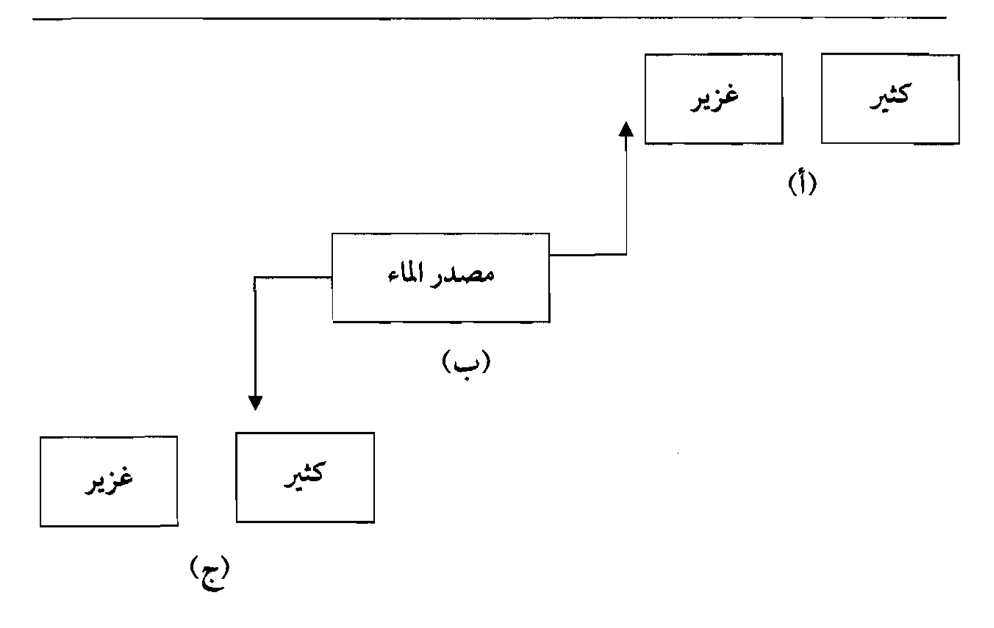
(واسع – ضيق) (جارٍ/ فائض – غير جارٍ)

إن العلاقة النسقيَّة التي تحكم هذه الأزواج في خطاب الرحلات هي علاقة التعارض، والتعارض يضفي على جو الوصف حكم الواصف ونظرته، فالآبار قريبة حيناً، وبعيدة حيناً آخر، وكثيرة، وقليلة، وهكذا. كما نلمس تكرار المفردتين (كثير)، (غزير) كثيراً.



تبدو الديمومة المتمثلة بالصفة المشبَّهة موحيةً بالأمان والاستقرار، وكأنَّ نفس الرحَّالة تبحث عمَّا يخفِّف عنها وطأة السفر، ويؤنسها في الارتحال، فتتشبَّث بهاتين اللفظتين، وتستخدمها في الوصف لبنية الماء، فتعطيها تلازماً وخصوصية، بتكوين تركيب الإضافة، وتعطيها خصوصية غير متلازمة بتكوين تركيب النعت، وكأنه في التركيب الثاني جاء بالنعت مشبعاً بالكثرة، فهدأت نفسه، واستقرَّت، فلم تعد لفظة (كثير) لها السبق في كلامه، بل أخَّرها مطمئناً في مغايرة مقصودة، ويمكن توضيح ذلك في الشكل الآتي:

(1) المصدر السابق، ص 25.



تكون الكثرة والغزارة المستمدة من (أ + ب) أعلى درجة منها في (ب + ج)

ومن الأوصاف الغريبة التي استُخدمت في وصف الماء المفردات (ضيِّق، خفيف، ثقيل)، لكنها ليست شائعة عندهم جميعاً، إذ وظَّف خطاب أدب الرحلة بها استياءَ رحَّالته، وحمَّلها ما أراد نزعه من مخيِّلته، لذا لم يكثر منها، ومرَّ بها مروراً، فالصوتان (القاف، الضاد) خاصة يوحيان بعدم ارتياح، ومحاولة خلاص سريعة، تجعله لا يطيل الرؤية ولا الوصف.

أمَّا الأفعال المستخدمة في وصف الماء فتبدو في المجموعتين الآتيتين:

أ- مجموعة مفضَّلة للرحالة، وهي أفعال (يسطع، يضرب...... إلخ)، فهي تدلُّ على وجود الماء في المكان المذكور، بغض النظر عن كيفيَّة ذلك، فحقَّقت بذلك شبهَ ترادفٍ في المعنى المقصود، وهو وجود الماء. فمن صواب طرق الصياغة أن تخالف ما بين العبارات بتقليبها بواسطة المترادفات[1].

هذا المكان له هيبته وسلطته، فيقدِّمه الرحَّالة حيناً على الفعل ولفظ الماء، كما في: «إليه

(1) النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص 306.

يجري الماء»، ويعطيه صدارة الكلام، ويقدِّمه على لفظ (الماء) فقط، كما في: «تجري خلال أقاليمهم الأنهار»، ويؤخِّر الفاعل إكراماً له، ويجعل الماء خصوصيته وملكه، كما في «يعظم ماؤه»، فيعلي مقامه، ونراه يصف أمكنةً أقلَّ احتواءً على الماء، فيجعلها في جملة خبر المبتدأ (الماء)، كما في:

الماء يضرب

الماء يسطع ←———— **أهمية الماء لا المكان**

المياه تتخلَّله

ب- مجموعة لم يفضِّلها الرحَّالة لعدم اكتفائها بالماء، واعتمادها على غيرها. ويبيِّنها بالفعل (يُحمل) المبني للمجهول، فهمَّش المكان، وعظَّم أمر (الماء) باعتباره المبتغى الذي صيغ البناء للمجهول من أجله، كما في قوله: (يُحمل إليهم الماءُ)، فلم يكن تأخير نائب الفاعل لأهمية المكان المقدَّم المشار إليه بالضمير (الهاء)، وما دلَّ عليه إفراداً وجمعاً، وإنما لبيان المسافة الطويلة التي تُستغرق أثناء حمل الماء من مكان بعيد إليهم.

وإذا نظرنا في الأدوات التي استُخدمت في أدب الرحلة في ذلك القرن، سنجد توظيفاً لها من أجل إثبات أحد الأمرين الآتيين:

أ- وجود الماء كما في الأدوات (في، بـ، لـ، من).

ب- عدم وجود الماء بأداة النفي (لا)، و(ليس)*.

وكان خطاب أدب الرحلة في الحالتين يعوِّل على الجملة الاسمية، لتوصيل ما يريد، فأخرج ذلك إثر قوليةٍ خاصةٍ، تمثَّلت في الأنواع الآتية من الخطاب:

1- تصدير الوصف بشبه الجملة المكوَّنة من الأداة والمكان الذي غالباً ما يُشار إليه بالضمير، ثم ذكر مصدر الماء، كما في: (بها عين ماء)، و(فيه العيون والآبار)، و(لهم مياه).

2- إضافة النعت للوصف السابق، وفق مقابلة (الكثرة- القلة)، وفي تقديم شبه

(*) صُنِّفت «ليس» مع الأدوات، لفقدها الحدث.

الجملة إثبات وتأكيد، فدلَّت على أن وجود الماء ليس إلَّا فيه أو بـه أو لـه، دون توقُّـع نقـيض ذلك، أو تخيُّل الأمر وعدم التثبُّث منه.

3- تصدير الوصف بذكر (الماء أو الشرب)، ثم إضافتها إلى ضمير يعـود عـلى المرتحـل إليهم، ثم الأداة ويليها مصدر الماء، كما في (شربهم من نهر.....).

4- إضافة النعت للوصف السابق.

نظر أدب الرحلة إلى المكان نظرة متفحِّصٍ واعٍ، فرآه مكاناً مَرْضيّاً عنه في القولبـة الأولى باحتوائه على الماء، فجعل الضمير المشير إليه في أول الجملة، إذ توحي الظرفية المكانيَّة المتمثِّلـة بالحرفين (فـ، بـ) بمناسبة المكان للارتحال إليه، أما (لـ) الاختصاص، فتوحي بأمان واطمئنان للرحالة بتخصيص الماء للمكان وأهله، فلا ينفد منه ولا يزول عنه. وعندما يضيف النعت إلى الوصف السابق يزداد الرضا عن المكان حيناً، ويقلُّ حيناً آخر تبعاً للقصد من النعت سـلباً أو إيجاباً. والمكان ما زال محور الحديث وبؤرته في الحالتين، فالتنكير تتحدَّد معالمه في هذا النسـق، وتتَّضح مقاصده بالوصف المشير إليه، كما في المثال الآتي:

حرف (في + بـِ + ل) المتصل بالضمير	+	عين ماء + ⟵ جار كثرة عين ماء + ⟵ ضعيف قلَّة

أما في خطاب (شربهم من) ففي ذلك إشارة إلى قلـق الرحَّالـة مـن عـدم اتضـاح معـالم وجود الماء، فيبحث كي يريح نفسه عن مصدر الماء، ومـا إن يجـد هـذا المصـدر يتَّجـه لثبـات الجملة الاسمية، ليجد بها ضالَّته، دون مفاضلة بين أركانها، بل يكفيه أنه توصَّل لمعرفة مصدر الماء، لذلك لم يُكثر من النعت في هذا النسق، واعتمد وجود مصدر الماء فقط، وكأن رضاه عن أمكنة هذا الوصف وصل إلى أقلِّ درجاته، وكذلك الأمر في: (منـه شربهـم)، إلَّا أن الخطـاب هنا بيَّن أهميَّة مصدر الماء بتقديم شبه الجملة، وهذه الأهمية لم تُعْلِ درجة الرضا بشيء يوصـلها إلى درجة الخطاب الأول في القولبة السابقة.

ويمكن توضيح الأمر في ما يأتي:

أ: حرف الجر (لِـ) >

ب: الحرفان (في، بـِ) >

ج: حرف الجر (مِن)

يمثِّل هذا درجات متفاوتة لرضا الرحَّالة في خطاب أدب الرحلة عن الأماكن المرتحل إليها في مسألة وجود الماء.

أما نفي وجود الماء فجاء نفياً قاطعاً كقوله: (لا ماء.......)، وخصوصاً لنفي صلاحيَّته كقوله: (لا عذبة)، وكأنَّ في هذا النفي كرهاً للمكان، فأراد الخطاب إثبات عدم وجود الماء فيه، بالاسميَّة الغالبة على نفي الصلاحية.

- **وصف التربة والمزروعات**

شاع في خطاب أدب الرحلات ذكر مسميات المزروعات للأماكن المرتحل إليها، وبدا من ذلك اهتمام الخطاب بتقديم الموصوف بصورة جميلة، فجاء الوصف بالاسم، وبالفعل، وبالأداة كوصف مصادر المياه.

- **الوصف بالاسم**

وُصِفت خيرات الأماكن المرتحل إليها، وعُرِضت بأسلوب تقسيميٍّ واضحٍ في خطاب أدب الرحلات، فعُنِيَ الخطاب بذكر أوصاف الخير والعطاء من كثرة وخصوبة وجودة، كما يتضح في الجداول الآتية:

الاسم	التركيب	التركيب
(كثير)	كثيرة المزارع م 218، س 257	كثيرة البساتين والفواكه م 329
	كثيرة الكروم والمزارع م 218	كثيرة الجوز والفواكه م 325
	كثيرة الفواكه م 57، 50، 325، 379	كثيرة الطعام والتمور والأعناب ص 140

	كثيرة البساتين م 251، 252، 299 كثيرة الأعناب الجيدة والمزارع العذبة الطيبة م 252 كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات م 253 كثيرة الفواكه والخيرات م 216 كثيرة الجوز م 44 كثيرة الزيتون والكرمات م 288 كثيرة الزيتون والتين م 218 كثيرة التوت والزيتون م 218 كثيرة التين والأعناب والزيتون م 218 كثيرة الفواكه والخيرات م 216 كثيرة الأشجار م 215 كثيرة الزيتون والأشجار م 218 كثيرة الكروم والمزارع م 218 كثيرة الأعناب م 266 ولا تسأل عن كثرة البساتين م 215 بساتين كثيرة وسدر وريحان م 265 بساتين كثيرة م 268 تين كثير م 268 أرزاز كثيرة م 298 كثيرتا المياه والأشجار والزروع ص 124 وهي مدينة كثيرة البساتين والماء الجاري ص 175 فواكهها كثيرة ص 181 كثيرة المراعي والرياض ص 184 شجر كثير ف 168	كثيرة المفاخر والفواكه م 326 كثيرة البساتين والرساتيق والزروع ص 108 كثيرة الخير ص 108 كثيرة الزرع والثمار جداً ص 108 كثيرة الثمار والزروع خصبة ص 117 كثيرة العناب م 276، م 298 قليلة الأشجار م 276 كثير المزارع م 274 كثيرة الفواكه والأعناب م 274 كثيرة الأنهار والثمار م 277 كثيرة الفواكه والزيتون والرمان م 301 كثيرتا الماء والشجر والزرع ص 46 كثير النخل والمزارع ص 130 كثيرة الأعناب والفواكه س 137 كثيرة البقر والزرع والعسل س 222 كثير الخير عتيق الخيل كثير الأعناب والمزارع س 224 كثيرة الزرع والورس والعسل والبقر س 228 كثير الأعناب س 240 كثير النخل والآبار س 285 كثيرة التمور م 216 كثير النخل م 358، ص 27، س 330 معدن التمور م 358، 377 كثير المياه والأشجار والثمارع 60 كثير النخل والرمل س 289، 295

	كثيرة النخل والمزارع س 130	
(خصب)	مشجّرة خصبة م 263 مشجّرة م 263 خصبة ص 31، 35، 33،34، 154،58 عظيمة خصبة ص 36 خصبة واسعة ص 36 صغيرة خصبة ص 42 عامرة خصبة ص 45، 175 وهي خصبة ص 46 وهي ناصية خصبة ص 106 وهي خصبة جداً ص 110	وهي على غاية الخصب ص 156 وهي على غاية الخصب والسعة ص 141،167 خصبة صغيرة ص 167 بلدهم خصب س 44 وهي في غاية الخصب ص 153 مشتبكة م 360 مشتبكة البساتين والمياه والأشجار والقرى العامرة ص 151 خصبة ص 111، 117، 118
(جيد) وما يرادفه	صحيحة التربة ص 152 طيبة التربة ص 152 مليحة التربة م 99 جيد الثمار م 143 معدن الأعناب والفواكه النقية م 367 نزه في الكروم والأعناب الجيدة والفواكه الحسنة م 274 حسن الثمار م 276	حسن الأعناب م 298 حسنة الثمار م 300 جيدة التمور م 100، م 377 لذيذة الثمار م 324 حسنة الفواكه م 322 ضياع قليلة وفواكه لذيذة م 298 زكي المزارع م 250
(ذا/ ذات)	ذات مزارع كثيرة م 244 كلها ذوات أنهار وأشجار ص 156 ذات نخيل وزروع ص 41 ذات أنهار وأشجار وزروع كثيرة ص 156 ذات زروع كثيرة ومياه وأنهار ص 167 ذي أعناب وزروع س 262	ذي نخل س 173 ذات نخل ونخيل م 229 ذات نخيل كثيرة ص 23 ذات نخل وزروع وشجر ص 54 ذات قرى وسعة وخصب ص34

- **الوصف بالفعل**

الفعل	التركيب	التركيب
(أحـــاط) ومـــــا يرادفه	تحيط بها مياه كثيرة وأشـجار وزروع متصـلة ص 45 يحفُّ بأبوابها كلها البساتين والكروم ص 156 قد التفَّت بها الأشجار م 244، 252 اشتبكت فيه الأشجار م 313 ثمَّ نخيل وقرى قد أحاط بها م 103	يحدق بالبلد البساتين والنخيل وتجمع الأضداد من الثمار م 379 اجتمع فيه.... والجوز والنخل م 376 قد أحدق بالجميع البساتين الحسنة م 360 قد حفَّت بها النخيل والبساتين م 343

- **الوصف بالأداة**

الأداة	التركيب	التركيب
(على)	والغالب عليها الأشجار العالية والغياض والميـاه ص 121 والغالب على ثمارها الأعناب ص 130	الغالب عليهم الزروع وبساتينهم قليلة ص 153 الغالب عليهم زروعهم الأرز ص 105
(لا)	لا بساتين لها زاكية م 218 لا ..... ولا فواكه كثيرة م 274 لا نعم ولا فواكه م 304 لا نبات فيه ص 136	لا نبات فيها س 221 لا يرى فيه نخيلاً ص 24 لا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات ع 39
(ليس)	ليس بها نخيل ص 106 ليس عليه كثير شجر ولا نبات ص 123 ليست لهم مزارع ص 156 ليس ببلد نخيل م 103 ليس لهم كثير شجر ولا نخيل ص 104	ليس ببلادهم نخيل ولا زروع ص 27 ليس للعرب بها ماء ولا مرعى ص 20 ليس حواليها بساتين وأشجار ص 78 ليس حواليها شجر ولا بساتين ص 77 ليس بها زرع ص 137
(في)	فيه نخيل وتين كثير ورمان ص 118 فيهما مياه وأشجار وزروع ص 118	فيه نخل س 253 فيه آراك س 253

	وهي في أرض سهل ص 84 فيه قرى وزروع وأعناب س 249 في رؤوسها الماء والمرعى والزرع والقرى س 249 فيه قرى ومساكن ومزارع س 252	فيها أعناب وآبار س 257 فيه التفاح واللوز والثمار س 261 فيها زروع س 261 فيها نخل وزرع س 283 فيه نخل كثير س 281
(بِـ)	به تين وزيتون م 298 به قرى ومساكن ومزارع متفرقة مفترشة ص 31 بها نخيل وثمار كثيرة ص 40 بها نخيل وعيون مفترشة قليلة ص 41 به عيون وأنهار ونخيل ص 45 فإن بها نخيلاً كثيراً وزروعاً ص 42 به القرى والزرع س 261 بها نخل وسكن س 280 بها النخيل وحصن منيع س 286 بها نخيل ص 140 بها نخيل كثيرة ص 136 بها نخيل م 102 به نخيل كثيرة م196	بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب ص 143 بها نخيل وفواكه وزروع ص 142 بها نخيل وأعناب ص 141 بها نخيل وأشجار ص 142 بها نخيل وفواكه وزروع ص 61 بها زرع يسير ص 31 به الحصون والنخل والزرع س 304 به النخل والزروع والآبار والحصون س 306 به الزرع والآبار والحصون س 306
(لِـ)	لها بساتين م 268 لهم بساتين وكروم كثيرة م 304 لهم مزارع كثيرة م 304 لها زروع سقي ومباخس[1] ص 46 لهم مياه وبساتين وزروع كثيرة خصبة ص 117 لها أنهار وبساتين وفواكه كثيرة ص 118	لها سهل ومياه جارية وبساتين ص 87 لها مياه وأشجار وزروع كثيرة ص 46 لها فواكه وأعناب كثيرة وزبيب ص 124 لها نخيل كثيرة ص 105، ص 23 لها نخيل متصلة ص 57 لهم مباخس كثيرة ص 152، ص 53

(1) البخس من الزرع: هو الذي يسقيه ماء السماء.

	لها مياه وأنهار وزروع ص 118	لهم مياه وأشجار كثيرة ص 151
	لها زروع ومياه وبساتين ص 123	لها بساتين ومياه ص 151
	لها أعناب كثيرة وجوز ص 123	لها كروم وبساتين كثيرة ص 153
	لها كروم وأشجار كثيرة ص 156	لهم كروم مباخس كثيرة ص 501
		له سهل وجبل وسقي مزارع ومراع ص 181

تستلزم إفادة التواصل وجود مرسل، ومتلقٍّ، وبنيتين مسندتين: إنتاجيَّة وتأويليَّة. ولَّما كان المرسل، والمتلقِّي عمادين أساسيَّيْن في العمليَّة التواصليَّة فإن الأمور تستوجب مكوِّناً رئيسيّاً رابطاً بينهما تشكِّله القناة، وهكذا تحصل المحدّدات القاعديَّة التقليديَّة لكلِّ فعلٍ تواصلي: المرسل، والقناة، والمتلقِّي[1].

يهدف التواصل إلى إيصال خبر ما بأشكال لفظيَّة مختلفة، عبر مرورها بقناة التواصل المشتركة. «فالخبر هو المعلومة الجديدة التي تمنح المتلقي وصفاً يجهله عن حدث معيَّن»[2]، فيشكِّل مضموناً يضمن الفائدة التواصليَّة، بين المرسل والمتلقِّي، ويعبِّر عن انفعال المرسل إثر مشهدٍ ما عَلِقَ بذهنه، فجعله يتأثَّر به، فتأتي رسالته لتحقِّق إشباعاته الفرديَّة أولاً، ثم الجماعيَّة ثانياً، بالنظر إلى بنية المحيط الاجتماعي له.

جعل هذا الأمر أدب الرحلة قادراً على بناءِ نسقٍ وصفيٍّ يظهر فيه اشتياق الرحَّالة إلى ترابه، وبعين العربي الذي أحبَّ الأرضَ وتعلَّق بها، فلم يرتب المعاني في ذهنه، أثناء الترجمة اللفظيَّة لحسِّه، بل حشَدَ من الألفاظ التكراريَّة، ليس بهدف معرفتها، بل بهدف إرضاء الذات المرتحلة؛ لذا عبَّر عنها بألفاظ توحي بالوفرة والجودة، فجاءت المفردات:

(كثير، جيد، حسن، لذيذ، زكي، خصب........ إلخ).

رافقت الكثرة هذا الخطاب في وصف المزروعات، وتعدَّدت أشكالها، من كثرة مزروعات وبساتين وأشجار، إلى كثرة معيَّنة تتغاير من مكان إلى آخر. ولم ينسَ الماء الذي

(1) انظر تحليل الخطاب الصحافي من اللغة والسلطة، أحمد العاقد، ص 30.

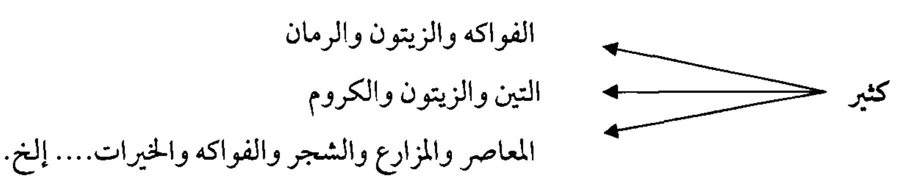
(2) المصدر السابق، ص 30.

باجتماعه مع هذه الكثرة يصل الرحَّالة إلى مقصده ورضا نفسه، فيجعل الوصف مشتملاً على كلا الأمرين كما في:

(كثير النخل والآبار)، (كثيرتا المياه والأشجار والزروع)، (كثير الأنهار والثمار)،.... إلخ.

وهذا الخطابُ التواصليُّ دالٌّ على المحيط البيئيِّ والاجتماعيِّ والثقافيِّ للمرسل، فاكتسب المحيط مكوِّناً سياقيّاً له أهميَّته في إبراز الملابسات والظروف المصاحبة، أو المتزامنة أثناء رؤية الموصوف.

وعلاوة على ما سبق، تبدو الكيفيَّة لصياغة المنتجات الإدراكيَّة وتأثيرها عبر قناة توافق طبيعة المضمون التواصليِّ[1] مظهرةً ملامح تأثُّر الرحَّالة إزاء الرسالة المبلَّغة، ومدى إشباعها لحاجتهم وتحقيقها لغاياتهم، فعمدوا إلى العطف كثيراً في وصفهم، إذ لم يكتفوا ببيان نوع واحد من الكثرة في المكان الموصوف، بل اهتمُّوا ببيان أفضليَّته وإنتاجه الوفير، فاستخدموا الوصل بالعطف مثل:



يحقِّق الربط بأداة مطلق الجمع ترابطاً رصفيّاً للخطاب وتماسكاً في بنيته السطحيَّة[2]، باعتماده أسلوبيَّة الواقعيَّة التسجيليَّة، وتركيزه على مشاهدات لعدد كبير من الموصوفات، فجعلها خطاب أدب الرحلة تشترك بالأحداث، للوصول إلى مشاركة المتلقِّي له في هذا الكمِّ من الخيرات.

وتبدو أسماء المزروعات المذكورة بكثرة في بيئة الرحلة العربية، كالنخل مثلاً، وفي بيئة

(1) انظر المصدر السابق، ص 34- 36.

(2) انظر النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص 303.

المكان المرتحل إليه كأنواع كثيرة من الفاكهـة، إذ يكشـف توزيـع المسـمَّيات لهـا عـن موقـف الرحَّالة التواصلي مع المتلقِّي، إزاء هذا الوصف المعتمـد عـلى التجـاور، فيوجِـدُ شـكلاً مـن أشـكال المجانسـة؛ لأن الكلـمات المتجـاورة عـبَّرت عـن مجانسـة مكانيـة زمانيـة[1] للمكـان الموصوف، انعكس وجودها على مستوى الخطاب الإنتاجي.

قلَّب خطاب أدب الرحلة الأسماء؛ لتدور حول موضوع واحد، يوحي بإيجابية الوصف للمكان المرتَحَل إليه، ويثير شعوراً بالجمال، إذ مكَّن أدب الرحلة من جعل عالم الـنص صـورة تُعكس في نفس الرحَّالة أولاً، ثم في خطابه، فأثار بذلك انتباه المتلقِّـي لمـا يريـد إيصـاله، مـن حبٍّ للأرض وخيراتها، فهي مؤنسه الأول في تنقله، وفي خيرها وعطائها أمن واسـتقرار لـه. لذلك يلجأ خطاب أدب الرحلة لتكرار هيكليٍّ بنائيٍّ، في الأسماء السـابقة الـذكر، «فالقاعـدة الأوليَّة في التكرار، أن اللفظ المكرَّر ينبغي أن يكون وثيق الارتبـاط بـالمعنى العـام، وإلَّا كـان لفظة متكلفة لا سبيل إلى قبولها»[2]. والكثرة الملازمة في هذا النسق التركيبـيِّ حـدَّدت إصرار أدب الرحلة، على موقف من ثبات إيجابية الوصف، وحضوره الفاعل، وكأنَّ الرحَّالة يخشـى أن يغفل متلقِّيه عن الصورة الخضراء التي يرسمها في صفحات رحلاته، فيبثُّ الخطـاب هنـا وهناك ما يجعل متلقِّيه متيقِّظاً دوماً لها، وما يمكِّنه من رؤية الألوان، في مفرداته المتمثلة بأنواع النبات والفاكهة.

جاء الخطاب متماشياً مع الكثرة في الوصف بالفعل أيضاً، إذ لم يستخدم من الأفعـال إلَّا ما دلَّ عليها كخطاب: (تحيط، يحدق، اشتبك.... إلخ). فظهرت الكثرة للأشجار والبسـاتين والثمار مرة أخرى، وكأن الخطاب لم يعد يرى غيرهـا في هـذا الوصـف الجـمالي. أمَّـا توظيـف الفعل في خطاب وصف المزروعات، فيبدو في تضمُّنه لأربعة أنواع مختلفة من العمل هي:

1. فعل الإنتاجية الإيجابية كالأفعال: يحيط، يشتبك، يلتفُّ.

(1) انظر اللغة العليا، النظرية الشعرية، جون كوين، ص 204.

(2) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص 264.

2. تكوين جملة الفعل وضمّه إلى عناصر إسنادية تصف جمالية الطبيعة.
3. وضع الجملة ضمن سياقها الخطابي.
4. تحقُّق صورة الوصف.

يبدو في العمل الرابع هدف المرسل ومبتغاه، فيمكن لشخصين أن يقولا الشـيء ذاتـه، دون أداء العمل الكلامي نفسه[1]، ودون النطق بجملة مشتركة واحدة، كما يمكنهما القول إن شيئاً ما يكون أو لا يكون بأساليب مختلفة، تـنمُّ عـن إيحـاءات مختلفـة أيضـاً، فالأفعـال شـبه المترادفة تتقارب إلى درجة أنها تصبح ذات مدلول واحد، وتتباعد إلى الحدِّ الـذي يصـبح فيـه لكلِّ لفظة مدلولها الخاص، فهذا ابن الأثير يقول: «ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين تدلان على معنى واحد، وكلتاهمـا حسـنة في الاسـتعمال، وهمـا عـلى وزن واحـد، إلَّا أنـه لا يحسـن استعمال هذه مع كلِّ موضع تستعمل فيه هذه، بل يفرق بيـنهما في مواضـع السـبك، وهـذا لا يدركه إلا من دقَّ فهمُه، وجلَّ نظره[2].

أمَّا الأداة فحالها كما سبق بيانه في وصف الماء، فراوح الرحَّالة بين الأدوات (في، بـ، لـ) لبيان غنى المكان وكثرة المزروعات فيه، كما قَرَنَ وجودها بوجود الماء في كثـير مـن الأحيـان، واستخدم الأداة (على)؛ ليعطي صورة شمولية للمكان الموصوف، بـذكر الغالـب عليـه مـن المزروعات.

وإعادة الأدوات السابقة لم تكن دون فائدة مرجوة، بل «مهما كانت العوامل المؤثرة فـلا بد أن يكون هناك اختلاف بين الإعادة التي لا خطر لها، وهي التي تتطلَّبها المجموعة المحدِّدة للبدائل من جهة، وبين الإعادة المقصودة التي يكون للتكرار معهـا مـبررات أعمـق»[3]. فلـم تكن العملية بالنسبة لأدب الرحلة إلَّا إعادة مقصودة، يبحث بها عن اسـتقرار مرتحليـه نوعـاً ما. فحمَّل الأدوات السابقة ما يريد، لما تحتمله من معاني الوجـود أو الخصوصـيَّة أو الملكيَّـة، فتوحي بإثبات ما يحتاجه الرحَّالة في الأماكن المرتحل إليها من مقومات الحيـاة، لـذلك يكـرِّر

(1) انظر اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ص 202.

(2) المثل السائر، ابن الأثير، 1/ 164.

(3) اللغة والخطاب والإجراء، بوجراند، ص 304.

الرحَّالة في تنقُّلاتهم مفردات النبات والزرع، علاوةً على مفردات الكثرة والخصوبة؛ لما لها من تأثيرٍ نفسيٍّ عميق. ومن ثمَّ ينبغي لعملياتهم الوصفيَّة أن تكون سهلة، في هذا المجال الوصفيِّ لوجود المزروعات، وتحقُّق خيراتها، وهذه السهولة وجدت طريقها بالأدوات السابقة؛ لوضوح الدلالة المقصودة منها. فالعناصر المكرَّرة ينبغي أن تنطبع بالذاكرة، وهذا الأمر تأتَّى للرحَّالة، بانطباع الطبيعة وخيراتها في مخيِّلته، ثم نقل تأثير ذلك لغيره.

- وصف المناخ

اهتمَّ الرحَّالة في القرن الرابع الهجري بوصف المناخ، وعرضوا أوضاعه المختلفة، وذلك بسبب تنقُّلهم المستمر، وتعرُّضهم لتقلُّبات المناخ من مكانٍ إلى آخر، فجاء الوصف كما يبدو في الجداول الآتية:

الاسم	التركيب
(الحرّ)	حارة في الصيف م 100، 277 في الصيف حارة م 270 حارة السوق م 100 أسوق حارة م 101، 275 حارة ص 140، 103، 78 حرهم شديد م 172، 216، ص 31 وادٍ حار س 229، 122 طبعها حار ع 71 في الصيف مؤذية م 163
(البرد)	شديدة الحر والبرد م 216 كثير المطر والبرد والهجاء س 347 الغالب عليها البرد س 352 فلا يدخلها البرد س 352 لا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته ف 111 لشدة البرد ف 116، 117 بليَّة في الشتاء م 249 قوة الهواء م 272

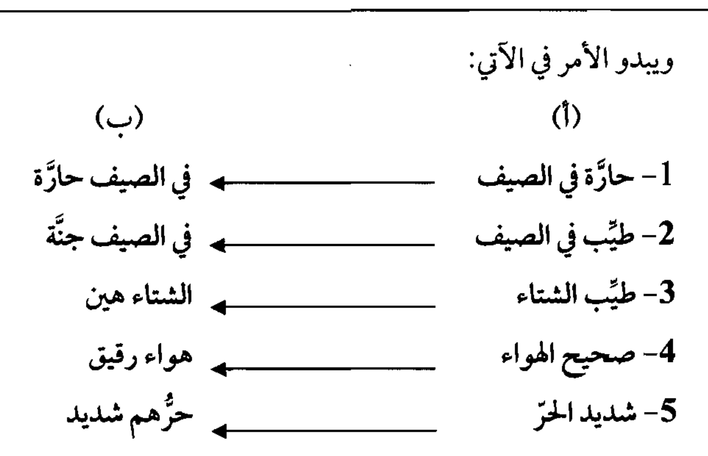
	كثيرة الرياح م 218
(طيّب الطقس) وما يرادفه	طيِّب في الصيف رفيق في الشتاء م 328 شاميَّة الهواء م 97 طيِّبة الهواء م 126، ص 24 هواء رقيق م 162 صحيح الهواء م 162 طيِّبة في الشتاء كثيرة الأمطار والثلوج م 252 معتدل في الشتاء خاصة س 346 في الصيف جنَّة م 249، 322 طيِّب الشتاء م 162

لا شكَّ أن أدب الرحلة سعى إلى إدراك كلِّ ما أحاط بالعالم الخارجي، وحاول التعرف إلى مكوِّناته وفهمها، وكان أول مستوى لحظه هو المستوى الحسيِّ بإدراك شيء حسِّيٍّ ماديٍّ، فينطوي على هذا الإدراك عمليَّة ذهنيَّة، وهي التعرُّف على طبيعة الشيء، وبدا هذا الأمر في وصف المناخ للمكان المرتحل إليه.

ورغم أن هذا المدرك شيء مادي ينتمي إلى عالم الواقع، فهو ذو طبيعة خاصَّة، وذو علاقة مزدوجة البنية، له جانبٌ ماديٌّ تتعرَّف إليه الحواس، وجانبٌ معنويٌّ يرى به أدب الرحلة ما لا يراه غيره، فالرحَّالة يرون إحساساً عميقَ الصلة، يربطهم بالمكان؛ لذلك فالمكانُ الحارُّ قد يكون شديدَ الحرِّ أو طيِّب الحرِّ، وفقاً لما يثيره من شعورٍ خفيٍّ لدى كلِّ رحَّالة بالمكان، إذ يتحكَّم به ذوقه وميوله، علاوة على طبيعة المكان وأهله التي تعكس جوَّ المكان ومناخه، فقد تجعله جميلاً لطيفاً رغم ما به من حرٍّ أو بردٍ، أو تجعله عادياً رغم هوائه الرقيق. إن نفس الرحَّالة المتنقِّل عرضة للأهواء، وتتقلَّب بتقلُّبها إثر التنقُّل من مكان إلى آخر، فأحياناً كثيرة لا ترى الواقع، بل ترى ما يعكسه الواقع في النفس.

جاء وصف المناخ حاراً وبارداً ومعتدلاً وفق قولبة خاصة اعتمدت التقديم والتأخير، للمعرفة الدالة على المناخ.

ويبدو الأمر في الآتي:



إذن، فتقليبات المفردات السابقة بين التنكير والتعريف، وبين الوصف والإضافة دليلٌ على تقريرها في نفس الرحَّالة، وحرصه على الاهتمام بها بقصد قاصد، وليس مرور كرام. اعتمدها وسيلة في سبك المفردات ونظمها، وأراد بها الاختصاص من جرَّاء تحديد صفة غالبة لمناخ المكان المرتحل إليه.

يبدو تقديم الخبر على المبتدأ في الجملتين الأولى والثانية في المجموعة (ب) إثبات وتأكيد يفوق التأخير في المجموعة (أ)؛ لما في ذلك من استحضار الزمان قبل وصف المناخ، فكأنَّ مرسل الخطاب يحدِّد إطار الوصف أولاً، ثم يقدِّم الخبر الذي يريد إيصاله. وفي المجموعة (أ) يأتي الوصف مألوفاً في التعبير عن المناخ.

أمَّا سائر الجمل، فجرى تقليبها حول التخصيص والإخبار، إذ اعتمد التخصيص في المجموعة (أ) فخصَّص الصفة المقصودة وعلَّقها بما تلاها من مفردة دالَّة على المناخ في تركيب الإضافة، بتلازم مفردتين ضمن علاقة تخصيص. وجاءت الصفة المقصودة في المجموعة (ب) خبراً مبتغىً وهدفاً مقصوداً للمفردة الدالَّة على المناخ، فبدت قوة التأثير في المجموعة (أ) في التخصيص أكثر من الإخبار في المجموعة (ب)، لما توحيه من تلازمٍ وتلاحُمٍ بين الموصوف ومفردته، ولما يشغلانه من حيِّزٍ وظيفيٍّ واحدٍ في تركيب الإضافة. أمَّا توزيع المفردة ووصفها بين حيِّزين وظيفيين في المجموعة (ب)، فأعطى الرحَّالة ذلك التوزيع زمناً لم يحتَجْه في المجموعة (أ) لإطلاق الوصف.

وصف مظاهر الحضارة

نظر أدب الرحلة إلى المكان المرتحل إليه بتفحُّصٍ ووعـيٍ، انصـبَّ اهتمامـه عـلى مظـاهر الحياة الحضارية المتمثلة بما يأتي:

1. المظهر الديني.
2. المظهر الاقتصادي.
3. المظهر العمراني.
4. المظهر السياسي.

- **وصف المظهر الديني**

اهتمّ الرحَّالة بالمظهر الدينيِّ، وكان محطَّ أنظارهم الأول في كلِّ مكان يرتحلون إليه، فهو مأمنٌ نفسيٌّ لهم قبل أن يكون مظهراً من مظاهر المكان. جـاء الوصـف كـما يبـدو في الجـدول الآتي:

- **الوصف بالاسم**

الاسم	التركيب
(حسن) وما يرادفه	جامع حسن م 204، 244، 271، 268، 275، 380 الجامع.... حسن م 163، 358 جامع لطيف م 276، 300 الجامع ظريف م 256، 276 جامع عجيب م 147 جامع نزيه م 244 الجامع....... لطيف م 349، 129 الجامع....... حسن نظيف م 355
(كبير / صغير/ طويل)	الجامع....... كبير م 163 جامع كبير م 174 صغيرة الجامع م 129، 244 طويل الجامع م 128

(قريب/ وسط/ بعيد)	جامعان قريبان من الأسواق م 14 الجامع قرب الشطّ م 145 متوسطة الجامع وسط الأسواق م 377 الجامع وسط البلد م 145، 146، 257، 267، 213، 353 جامعها وسط البلد م 244، 381 الجامع وسطها م 172 الجامع وسط الأسواق م 257، 258، 252، 377، 389 الجامعُ ناءٍ عن الأسواق م 244، 353 الجامع خارج البلد م 102 الجامع متطرِّف م 147 جامعها ظاهر البلد م 244 الجامع مشرف على البحر م 172
(عامر) وما يرادفه	جامعهم عامر م 325 آهله الجامعة م 244 مسجدها معمور بالناس على مدار الأيام كلها ص 151 مسجدها جامع ص 132، 167

- الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
(في)	الجامع في السوق م 129، 265، 244، 302، 357، 328 جامعها في الأسواق م 244، 315، 356، 329 الجامع في الربض تحت المدينة عند طرف السوق م 273 في وسط ذلك الموضع مسجد م 302 الجامع في طرفه م 256 الجامع في المدينة م 249، 271 الجامع في البلد م 381 المسجد الجامع في المدينة ص 167 مسجد جامع فيه منبر س 136

(على)	جوامعهم على الساحل م 102 الجامع على طرف السوق م 256 الجامع على جانب م 303 الجامع على بابه نهر م 32
(لـ)	للجامع باب في الأسواق م 244 للجامع باب يشرع إلى الميدان م 244
(من)	مسجداً من خشب ف: 163
(لا)	لا جوامع م 303 لا لجامعهم في الأيام تلك الجماعة م 273
(ليس)	ليس لجامعهم صحة م 100 ليس لها منبر ص 99

من الطبيعي أن يُوظّف الخطابُ أساساً لتغطية الواقع، ومن ثمَّ فمن المحال فهمه بنصٍّ مجرَّد، من غير علاقة دلاليَّة مع هذا الواقع، وكان واقع أدب الرحلة في تنقُّل وترحال دائمين، ابتداءً منذ اللحظة الأولى التي عايش فيها الواقع، وامتدت أصوله عندما عزم الرحَّالة على اتِّخاذ الترحال مهنة وصنعة لهم، فاختلف الواقع من مكان إلى آخر، وكَثُرت صوره في مخيِّلتهم وتنوَّعت، وتكوَّن لديهم من الأخبار الكثير.

نسج خطاب أدب الرحلة العبارات اللغوية ذات الوقع النفسي المؤثِّر في المتلقِّي، من أجل الوصول إليه، ومحاولة دفعه نحو المشاركة بالخبر المنقول. ويشتدُّ التأثير عندما يتعلَّق الأمر بالمظهر الدينيِّ الذي ينشد به راحته النفسيَّة، فيجد ضالَّته في وصف المساجد في الأماكن المرتحل إليها، وكأنه يصل مع متلقيه إلى تلك الأماكن، ويريانها عن قرب.

اهتمَّ أدب الرحلة بذكر الأوصاف الآتية للمسجد:

1. هيئته وشكله، فهو (حسن، لطيف، ظريف..... إلخ).
2. مساحته، إن كان صغيراً أو كبيراً.
3. مكانه بالنسبة للبلد، فهو قريب من الأسواق أو وسط البلد أو مشرف على البحر.
4. وصف إقبال الناس عليه كقوله: (عامر، معمور، آهل).

جاء الوصف بالجملة الاسمية، وعوَّل خطابُ أدب الرحلة على الخبر في نقل ما يريد إيصاله، فالخبر أعظم التعابير شأناً في النفس، وهو الذي يتصوَّر بالصور الكثيرة، ويكون محطَّ أنظار المتلقِّي ومبلغ حديث المرسل؛ كي يرسم صورة عن الجامع الموصوف، وتتحدَّد معالمه من تتابع الصور، فما ميَّز هذا الجامع أنه ظريف جميل، أمَّا ذلك فقرب مكانه من السوق، وأمَّا الآخر فإنه عامر بالناس.

ومن وجهةٍ صرفيَّة يكثُر استخدام الصفة المشبّهة في وصف الهيئة الخارجية للجامع، وبيان مساحته مثل: (جامع عجيب، لطيف، حسن، نزيه، كبير، طويل)، أمَّا وصف المكان وحركة الناس وإعمارها للمسجد، فتنوَّعت البنية الصرفية فيها بين الصفة المشبّهة واسم الفاعل، والمفعول، وفقاً لطبيعة الموصوف، فعلاقة الجامع بالأسواق والبلد ليست علاقة ثابتة، لتغيُّر مكان الأسواق، أو امتداد العمران في البلد؛ لذا ما كان متوسطاً ومتطرِّفاً اليوم لن يبقى على حاله، وإن يثبت الأمر، فليس من الثبات بمكان ثبات الهيئة بحسنها وجمالها، وكذلك الأمر بوصف حركة الناس به فهو عامر معمور، بيد أن الثبات لا يوافق ثبات البناء حجماً ومساحة.

أمَّا البناء النحوي، فيبدو في تلوُّن وصف المسجد بين خبرٍ ونعتٍ، تبعاً للتعريف والتنكير الذي رسمه الرحَّالة، فقال:

(جامع عجيب، لطيف، حسن)	$\neq$	(الجامع ظريف، لطيف، حسن)

ليس بالضرورة أن يكون التعريف للتفريق التقليدي الذي يقول بالتقابل بين فكرتي الجديد (نكرة) والمذكور سابقاً (معرفة)، فالجامع من العناصر المنتمية للنظام العام الجمعيِّ المعروف، بيد أن تنكيره نشَّط مساحاتٍ ذهنيَّةً جديدةً لم تكن في التعريف، فالتعريف أرشد السامعين إلى النظر المباشر إلى الجامع وحسنه ورسم صورته في أذهانهم، إذ أن (الجامع) يوحي بصورته وحده، بمعزل عن المكان الذي قلَّت أهميته بالتعريف. أمَّا التنكير وسَّع الصورة، فجعل الجامع ضمن بؤرة مكانيَّة، فـ(جامع عجيب) جزء من لوحة المكان المرسومة في صفحة واحدة.

أمَّا الأدوات فيتَّضح استخدامها لبيان مكان الجامع، كاستخدام الاسم سابقاً، ويظهر

هذا جليّاً بالنظر إلى التراكيب السابقة، كما وصف الهيئة أيضاً مثل: (لجامعها نور، للجامع باب، مسجد من خشب، مسجد فيه منبر)، وجاءت الأداتان (لا، ليس) لنفي وجود الجامع، أو نفي شيء من هيئته الشكليَّة.

- **المظهر العمراني**

نظر خطاب أدب الرحلات إلى المظهر العمرانيّ بشقيه: المـاديِّ، والإنسـانيِّ، فوصَفَ أشكال البناء الخارجيَّة، كما وصف أيضاً العمران السكانيّ في كلِّ مكان يُرتحلُ إليه، فجاء الوصف ضمن القسمين الآتيين:

- **وصف البناء**

اهتمَّ الرحَّالة بمظاهر عمران المكان، فوصفوها وبيَّنوا أشكالها المختلفة من مكان إلى آخر، بتراكيب لغويَّة مختلفة تتضح في ما يأتي:

+ الوصف بالاسم

تعدَّدت تراكيب الوصف بين الاسميَّة والفعليَّة، وعُوِّل على الأداة كثيراً في الحالتين، من أجل إبراز هيكليَّة البناء في المكان الموصوف، كما يبدو في الجداول الآتية:

الاسم	التركيب
(حسن) وما يرادفه	حسن، حسنة البناء م61، 144، 165 حسن البنيان م 101 عجيب البناء م 146 منازل مليحة أنيقة م 269 بناء ظريف م 250 حسنة البيوت م 248 منازلهم فسيحة طيبة م 101
(مشتبك) وما يرادفه	مشتبكة العمارة م 267 مشتبكة البناء ص 77، 78 مفترشة البناء ص 145، 78 متصلة المنازل م 254 أبنيتهم طبقات ص 78

مفردات نوع البناء	بناؤهم حجارة م 357، 266، 315، 172، 213، 216 بناؤهم حجر غير مؤلف م 352 بناؤهم طين م 268، 328، 379، 267 بناؤها طين ص 151، 153، 154، 78، 122 أبنيتها طين ص 145، 146، 154 بناؤها الطين س 151 بناؤها طين وخشب ص 178، م 249، 252 بنيانهم خشب وطين م 160 بنيانهم خشب وقصب م 304 بناؤهم فركاهات م 304 بناؤهم بعض حجارة وبعض فركاهات م 303 بناؤهم مَدَر م 213 بناؤهم خشب ولين م 248 بناؤها خشب مشتبك ص 171

+ **الوصف بالأداة**

الأداة	التركيب
(من)	بناؤهم من حجارة ص 47، 36 بناؤهم من الحجارة البحرية م 191 بناؤهم من طين م 190، ص 143، 77، 117 بناؤها من طين ص 150، 151، 118، 125 بناؤهم من جص وحجر م 303 أبنيتهم من آراج لقلة الخشب بها ص 99 أبوابها من خشب ص 150 بناؤهم من الطين والحجارة ص 76 أبنيتها وأبنية سائر هذه المدينة من طين ص 78 أكثر أبنيتها من حجارة ص 35

(بِـ)	أكثر أبنيتها بالجص والحجارة ص 53 بناؤهم بالساج والخشب ص 78 معظم بنائهم بالطوب طبقات ص 39
(على)	الغالب على بنائها الطين ص 119 الغالب عليه بنائها الطين ص 119 الغالب على أبنيتها الخشب والقصب ص 124

تبدو صفة القالب العباري في هذا الوصف بوضوح، لكنها قولبة إبداعية، أنتجهـا أدب الرحلة. فالقالب العباري لم يمتصّ فردانيَّة المبدع، ولم يقصِها عن عملها، بل جعلهـا حـاضرة موجودة، رغم الإنتاج العام المشترك بين الرحلات.

دارت القولبة حول الاسمية في هذا النسق، وكانت بؤرتها لفظة البنـاء، ضـمن إطـارين هما:

1- تخصيص الوصف بتركيـب الإضـافة مثـل: «حسـن/ عجيـب البنـاء»، أو تركيـب الوصف مثل: «بناء ظريف». كما لجأ إلى مرادفـات البنـاء في الحـالتين، إذ دار الوصـف حـول اتِّفاق المعاني.

2- إضافة الضمير إلى مفردة (البناء)، ثم بيان نوع البناء، مثل: «بناؤهم من.... ».

وكانت الأداة (من) أكثر الأدوات استعمالاً، وذلك لما تدلُّ عليه مـن بيـان للنـوع، هـذا النوع الذي كان هاجساً في خطاب أدب الرحلة، في هذا النوع من الوصف. كانت المغـايرة في البناءِ الشكليِّ تضفي على الوصف جماليَّة؛ للتشاكل المضموني الواحد كالآتي:

بناء	ضمير الغائب	الـ من «من الـ»	طين	= نوع البناء (شكلية) ≠ نوع البناء (دلالية)

عندما يلجأ الرحَّالة إلى التعريف فهو يقول للمتلقِّي إن المحتوى ينبغي أن يكـون سـهل

الاستحضار، فيعطي التعريف العناصر الداخلية في عـالم الـنص حتميَّـة لا تحتمـل الجـدل في سياق الموقف[1]، أمَّا التنكير فيوحي بافتراض وجود أنواع أخرى من البناء، لكنَّها قليلة جـداً لدرجة تغليب النوع المذكور عليها. وتعمل الأداة (من) على ربط البناء بنوعه في الحالتين، بيد أن استحضار الخبر دونها أقوى وأثبت، وكأن الرحَّالة بها احتـاج إلى تـأنٍّ قصـيرٍ لمعرفـة نـوع البناء والتثبُّت منه، في حين أنه كان في غنىً عن هذا التأني عندما لم يستخدمها.

- **وصف العمران السكاني**

شغل المكانُ الرحَّالةَ، واهتمُّوا بوصـف عمرانـه السـكانيِّ، لمـا يوحيـه ذلـك مـن أمـن واستقرار في نفس كلِّ مغترب.

+ الوصف بالاسم

ظهرت مفردات العمرانِ السكانيِّ في خطاب أدب الرحلات، وأظهرت بـذلك صـورةً حيَّةً للمكان كما في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
(عامر) وما يرادفه	بلد جليل عامر آهل م 102 عامرة آهلة م 101، 102، 213، 275، 276، 324 آهلة عامرة م 267 كبيرة عامرة م 271، 329، 128 عامرة جيدة م 274 لطيف عامر م 328 عامرة آهلة ص 54، 167 صغيرة عامرة ص 61 عامرة م 102، 257، 247، 258، 288، 252، 325، 327، عامرة ص 45، 36، 33، 31، 35 عامرة منيعة مسكونة ص 36 عامرة بالأهل جداً ص 46

(1) انظر اللغة والخطاب والإجراء، روبرت، ص 306- 310.

(كثير) وما يرادفه	شبه مدينة عامرة م 302 كثيرة الأهل ص 77، 78، م 360 خلق كثير م 248 قرى كثيرة س 133 تامة العمارة ص 78 شديدة العمارة م 252 جيد الأهل م 214

+ الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
(في)	في غاية العمارة م 150
(ليس)	ليست بعامرة ص 168
(لا)	فلا عمارة فيها ع 73

وصف أدب الرحلة الواقع - كما بيَّنا - وسجل أحداثه ومظاهره، بالتركيز على مشاهداته البحتة، وكانت ذاته المحور الأول في هذا الوصف، فوصْفُ السكان والعمران يوحي بنفوس أصحابه الحركة والحياة، ويدفع المتلقِّي للمشاركة في هذه الحياة، فيرسم له صورةَ مجتمعٍ كاملٍ، بلفظةٍ واحدةٍ ومرادفاتها، ويجعله يأنَسُ الرِّحلةَ، ويشعر بأحداثها المكتوبة وغير المكتوبة، فيعطيه مساحةً خاصةً من التخيُّل، واستكمال الأحداث بما يراه مناسباً.

استخدم الرحَّالةُ مفردةَ (عامر) ومرادفاتها مثل: (آهل، مسكون، كثير الأهل)؛ لبيان عمران الأماكن المرتحل إليها بالناس، مع الإشارة إلى بعض الملامح الأخرى، كالكِبَر، والصِّغَر، والمناعة، وحسن الأهل وكثرتهم. كما أشاروا إلى العمارة المادية، أيضاً، ويبدو الأمر في قولهم مثلاً: «قرى كثيرة»، بيد أن العمرانَ السكانيَّ كان له الأثرُ الأقوى في الوصف من العمران المادي، فالاغتراب يجعل الرحَّالة باحثاً عن أهل، والتنقُّل بين الطُّرق يحبِّب إليه رؤية الخلق.

تجلَّى الاهتمام بالعمران السكاني بالتكرار لمفردة (آهل/ مأهول) وما تشير إليه، ففي هذا التكرار من الصناعة اللفظية اختيار متعمَّد للفظة تثبت الطمأنينة في حروفها، وتناغم جرسها، يجعلها كاللؤلؤة المنتقاة[1] قبل نظمها في سياقها، فينتهي الرحَّالة إلى غايته القصوى في اختيار الألفاظ، ووضعها في مواضعها اللائقة بها.

إن أبسطَ قاعدةٍ للتّكرار أنه-في حقيقته- إلحاحٌ على وجهة هامَّة في العبارة يُعنى بها الكاتب أكثر من عنايته بسواها، وهذا القانون البسيط يسلِّط الضوء على نقطة حسَّاسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسيَّة قيِّمة، تفيد في تحليل نفسيَّة كاتبه[2]. فكانت المفردة السابقة مفتاحاً من مفاتيح أدب الرحلات وخطابه، إذ لم تحلِّل نفسيَّةَ رحَّالةٍ معيَّن، بل هي دالَّةٌ من دوالِّ الترحال والتنقُّل، وقصدٌ من مقاصده، وهدفٌ يُرتجى لكلِّ رحَّالة يبحث عن الأهل والعمران.

- **المظهر السياسي**

بدا المظهرُ السياسيُّ في خطاب أدب الرحلات، فوصف الرحَّالة حصانةَ البلادِ ومناعتَها، كما يبدو في ما يأتي:

- **الوصف بالاسم**

جاء الوصف مستخدماً مفردات الحصانة في تراكيب اسميَّة تثبت وجود الحصانة، وتظهر اهتمام الخطاب بأمرها، ويبدو الأمر في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
(حصن) وما يشتق منه	صغيرة محصَّنة بباب واحد م 271 حصينة م 303، 357، ص 34 حصينة الجدار م 100

(1) انظر المثل السائر، ابن الأثير، 1/ 163- 165.

(2) انظر قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، ص 276.

	حصينة القصور م 360 محصَّنة بثلاث حيطان م 100 حصين م 100، 146، 102 حصن م 100 صغيرة حصينة م 101 محصَّنة م 256، 360 محصَّنة بالقلاع ص 174 غير محصَّنة م 266 كبيرة محصَّنة م 275 حسنة الحصن م 100 محكمة الحصن م 265 حصن صغير ص 47، 31
(منيعة/ مسوَّرة)	حصن منيع ص 31 منيعة ص 153، 36، ع 60 منيعة جداً ص 73 مسوَّرة ص 178، م 218

- الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
(لـ)	له/ ها حصن م 103، 268، 316 لهم حصن عجيب م 265 لها سور حصين ص 175
(في)	في وسطها حصن هـ 172 فيه حصن ع: 167، 3 مرات
(من)	حصن من طين، ص 61 السور من طين ص 156
(على)	عليها حصن منيع م: 97، 101، 172، 191 عليه حصن من الطين م 101

	عليها حصن م 257، 256، 248، 325، 255، 251 ص 118، 124 عليها حصن عظيم م 360 عليها حصنٌ حَسَنٌ على ساحل بحر الروم صغير به نخيل ص 47
(على + من)	عليها حصن من الحجارة م 195 عليها حصن من آجر م 302
(لا)	لا حصونَ لهم هـ 44
(ليس)	ليس عليها سور ص 77

للُّغة بُعدان متآخيان، يتمثَّل الأول بالفرد في عالمه المستقلِّ ظاهرياً، ويتمثَّل الثاني بالمجتمع في عالمه المكوَّن من عوالم، يسير كلٌّ واحدٍ منها في فلك نفسه، وفي فلك غيره[1]. تصوِّر المفردات اللغوية في هذا النسق البعد الثاني، وانعكاسه في البعد الأول، فالرحَّالة ينتقَّل في عالمه الخارجي، ويبقى مقيَّداً في عالمه الداخلي، تحكمه نزعة البقاء والحرص عليها، فكان يرى الحصانة في عيون أفراد المجتمعات التي يزورها؛ لترتد الرؤية في فلكه هو، فتعكس صورة البقاء في عينيه.

وجد الرحَّالة في القرن الرابع الهجري الأمنَ السياسيَّ في مفردات الحصانة والمنعة، فاستعذبها لما لها من تأثير في نفسه وإيحاء يكسبها سعةً وامتداداً أكثر من دلالتها الضيِّقة المحدَّدة، وكأنَّه خلق نوعاً من التوافق بين هيكلها اللغوي العام، وانعكاس ذلك في ترحُّله وتنقُّله، كثَّف فيها معنى الإحساس بالأمن بشكل كبير، فعمل هذا الأمر على إثراء المعنى، وتنميته في البناء السطحي للخطاب، وامتداده الدلالي للمفردات المكرَّرة.

ظهرت مفردات الحصانة والمنَعة بصور لغوية مختلفة، فعكست دقَّة ملاحظة الرحَّالة لهذا الأمر، وشدَّة انتباهه إليه، وبدا ذلك وفق النمطين الآتيَيْن:

1- ذكر المفردة (حصن) وما اشتقّ منها أو رادفها صفات مثل: (حصين، محصن، منيع)، وتمثّل التقابل الوصفي أثناء هذا الوصف كمقابلة مساحة المكان المحصن في:

(1) انظر اللسانيات، سمير استيتية، ص 690.

(صغيرة محصنة) ← **(كبيرة محصنة).**

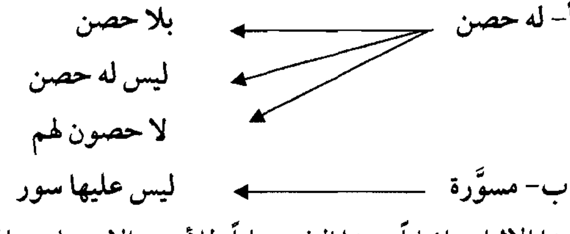
ومقابلة هيكلة الحصن ونظامه في:

(محصنة بثلاث حيطان) ← **محصنة بالقلاع**

2- ذكر الحصون في الأماكن المرتحل إليها، وبيان متانتها وقوتها بالدرجة الأولى مثل: (حسنة الحصن، حصن منيع)، فوصف الحصن بالاسم تقديماً وتأخيراً كما ظهرت هذه القولبة في ما سبق.

كان الوصف بالأداة هو الغالب على هذا النسقِ التركيبيِّ، إذ تبدو قولبته في ما يأتي:

1. الاهتمام بوجود الحصن وحسب، كقول الرحَّالة: (له حصن، فيه حصن، عليها حصن).
2. وصف نوع الحصن مثل: (حصن من طين، عليها حصن من الحجارة).
3. وصف قوة الحصن مثل: (لهم حصن عجيب، عليها حصن منيع).
4. المفاضلة بين طرفين، إثباتاً ونفياً، مثل:



بدا الإثبات إيجاباً، وبدا النفي سلباً؛ للأمن والاستئناس بالمكان المرتحل إليه.

- **المظهر الاقتصادي**

وصف خطاب أدب الرحلات الأسواق، وعرض مساحتها، وأشكالها، وأوصافها، كما يبدو في التراكيب اللغويَّة الآتية:

- **الوصف بالاسم**

اتَّضحت معالم السوق، وبدت ملامحه وصفاً اسميًّاً، وفعليًّاً، واستُخدمت الأداة لإثبات وجودها، أو عدمه، كما يبدو في الجدول الآتي:

الاسم	التركيب
(حسن) وما يرادفه	حسن الأسواق م 147، 269، 162، 301 كل أسواقها حسنة م 125 سوق/ أسواق حسنة م 172، 303 أسواقهم حسنة م 269 جيدة الأسواق م 258 مظلَّلة الأسواق م 325 أسواق القصبة مغطَّاة طريفة م 252
(مساحة السوق)	سوقها صغير م 276 سوقها كبير عامر م 256 أسواق فسيحة م 272 فسيح الأسواق م 326

- الوصف بالفعل

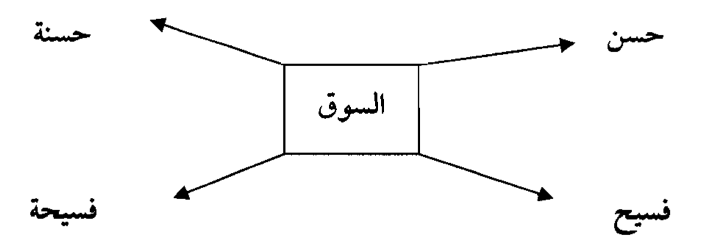
الفعل	التركيب
(ظلّلت- تظلّل)	أسواقها قد ظلّلت مجتمعة م 315 الأسواق تُظلَّل في الصيف م 272
(تقوم- التفت)	سوق تقوم في كل مديدة ف 164 يقوم سوق البحور ع 167 قد التفت الأسواق بجامعها م 275

- الوصف بالأداة

الأداة	التركيب
(في)	فيه سوق عامر م 251 فيها الأسواق والجامع م 244 في المدينة أسواق م 248 أسواقها في مدينتها ص 167

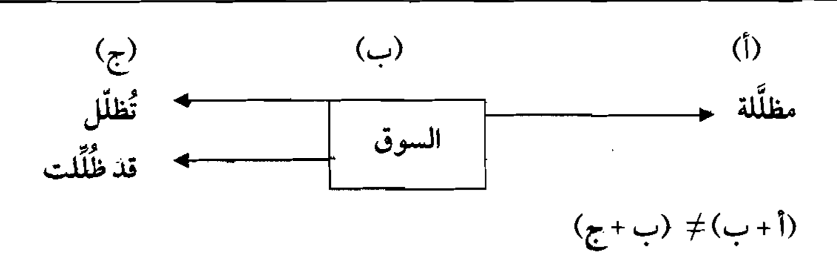
	أسواقها في ربضها ص 171
(ل)	لها سوق عامر م 360، 255 لها سوق ص 175
(بـ)	بها أسواق حارة م 263 بها سوق حسن م 103
(على)	وهي أسواق على غاية العمارة ص 140 على هذا النهر موضع سوق ف 164
(لا)	لا أسواقها بالواسعة العطيفة م 303 بلا أسواق م 327 لا ترى أحسن من سوق الحنطة بها م 352

اعتمد الوصف في هذا النسق الترادف والتناظر- كما شاع ذلك عند الرحَّالة- فالأسواق حسنة وجيدة وفسيحة وعامرة. فالبُنية التأثيرية للخطاب تقوى بترادف النظائر، هذا وإن أخذ الترادف شكلاً من أشكال المجانسة أيضاً، فتتجانس أوصاف هذا النسقِ التركيبيِّ وتتجاور مشكِّلةً نمطيَّةً واضحةً في تركيب الوصف وصياغته. تتمحور النمطيَّة وفق قولبة الوصف التي تبدو كثيراً في الرحلات، بتقدم الوصف أو تأخيره، كما استُخدمت في التراكيب السابقة، فتبدو مفردة «السوق» مركز الوصف كما في الآتي:



أصبح الترتيبُ القبْليُّ والبعديُّ للوصف طابعاً عاماً في خطاب الرحلات، فيرى به الرحَّالة ما يريد إيصاله لمتلقِّي خطابه، يُعلي به شأنَ مكانٍ على آخر، ويُظهر به جمالَ مظهرٍ على آخر، في المكان نفسه، أو بين الأمكنة المختلفة.

استُخدم الفعل أيضاً في هذه النمطيَّة أيضاً كالتوضيح الآتي:



(أ + ب) ≠ (ب + ج)

التكرارُ التجاوريُّ بين مفردة السوق ووصفها يمكن أن يؤثِّر في مُجمل الملامح الصوتية الملائمة؛ ليؤدي تجانساً صوتياً بدلالة مغايرة من وصف لآخر، تتنوَّع بالثباتِ الاسميِّ إلى ثبات المضيِّ إلى استمراريَّة المضارع.

وجاءت الأداة الظرفية لإثبات وجود السوق في المكان المرتحل إليه كمظهر تقدَّم، بتوفيره كلَّ ما يحتاجه ساكنوه وزواره، كقول الرحَّالة:

لها

على هذا + سوق ← **ازدهار الجانب الاقتصادي للمكان**

بها

في

للتقديم والتأخير أثره في هذا الوجود، فشبه الجملة المتقدَّمة على مفردة (السوق) توحي بما تمتلكه المدينة من مزايا كثيرة، تكون الأسواق جزءاً منها، وليست أهمّها، أمَّا تقديم المفردة على شبه الجملة، فيُعلي من أهميَّة الأسواق للمكان الموصوف، ويجعل منها بؤرةً، علاوةً على التخصيص المتضمَّن في التعريف.

سلَّطَ المرتحلون الضوءَ على السوق كثيراً في كتبهم، فكشف هذا الأمر عن اهتمامهم بها، ووضعوا في أيدينا مفتاحَ الفكرة المستوحاة من تكرار اللفظ.

الوصف الإنساني

تنقَّل الرحَّالة في أنحاء كثيرة، فشاهد أجناساً مختلفة من البشر، بدا الاختلاف شكلاً ولوناً ولغة، ولم يقف عند الاختلاف الخارجي فقط، بل تعمَّقت رؤيته، وامتدَّت إلى الجوهر والدين، والفكر، والمعاملة، ثم إلى تفاعله مع ما يرى، وتأثُّره بشخوص المكان المرتَحَل إليه، بالدرجة نفسها التي أثَّرها المكان به.

اهتمَّ خطابُ أدب الرحلات بوصف الإنسان خَلْقاً وخُلُقاً، جرَّاء تنقُّله من مكانٍ إلى آخر، فبدا الوصف بالاسم والفعل والحرف، وفقاً لما يريد الرحَّالة وصفَه، انطلاقاً من مبدأ الثبوتية والتغيُّر، واعتماد التقديم والتأخير في ذلك.

- الوصف بالاسم

جاءت الأوصافُ الاسميَّةُ لوصف المظهرين: الخارجي والداخلي للإنسان، كما يتَّضح في ما يأتي:

- الوصف الخارجي

وصف الخطابُ الإنسانَ بتراكيبَ اسميَّةٍ مكرَّرةٍ، منها ما دلَّ على الهيئة الخارجيَّة من شكلٍ ولونٍ ولسانٍ، ومنها ما أظهر التعامُلَ الإنسانيَّ، وما يوحيه من دين وعلم، وغير ذلك، كما يبدو في الجداول الآتية:

شكل	لون	لسان
كبار اللحى م 317	سُمْرٌ شديدو السمرة ف 137	ذوو وجهين ولسانين هـ 44
محلقو اللحى ف 137	ألوانهم سمرة م 392	لسان وحش م 355
نحيفة أجسامهم م 376	سُمرع 131	لسانهم وحش م 392
مناظرهم قباح هـ 43	سود الشعر ع 131	ألسنة مختلفة ع 18
جميلة هيئتهم هـ 44		كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير ف 113
		كلامهم أشبه بشيء بنقيق الضفادع ف 113

- الوصف الداخلي

الدين	العلم
أهل جماعة وسنة م 324	أهل فهم وعلم م 253
أهل سنة م 339	أهل أدب م 275
أهل....... وفقه م 261	أهل أدب وبلاغة م 267
أهل دين م 261	قرائح وأدب م 275
تشيُّع مفرط مع خلق وقرآن م 301	حذق وفطنة م 324
المذهب واحد...... مع فقه م 276	قرائح دقيقة ومجالس أنيقة ومدارس رشيقة م 272
كبراء في الفقه وأجلّة في الحديث.....م 298	أصحاب عقل وفطنة م 265
	أصحاب أدب وحكمة هـ 43
	حكماء م 265
	صناعة وحذاقة وتجارة م 272
	حذاق في نحت البرام م 275
	علماء وسُراة وعوام ودهاة م 326
القوة	**المال**
حزم وهمة م 324	أهل تجارات في البرع 84
بأس وشدة في الحرب م 253	أهل يسار وغنى هـ 44
أنصار الحق إذا ما ظهر م 329	حرص على جمع المال ع 84
أهل الدولة والظفر م 259	سهل عيشهم هـ 44
بأس ومنعة م 276	ظاهرو اليسار ع 141
رجال في القتال م 298	فقراء ف 137
أحرار هـ 46	الرخص دائم م 276
أنفسهم نبيلة هـ 46	نعمة خصبة طيبة م 261
	يسار م 261

المعاملة	المعاملة
أهل ضيافة م 253	قوم سوء م 340
أهل لباقة م 389	جفاة رديّو المعاملة م 276
ظرف ودراية م 267	طباع خوارزم كالبربر م 254
ظرف ولباقة م 272	طبع غليظ وخلق بغيض م 255
حفاظ ومودة م 272	أكل فاحش وبلد وحش م 255
أصحاب مروة ع 125	أهل طنز وهبل م 270
أصحاب همة م 265	متهورين هـ 44
مروة م 261	مثل البهائم ف 165
حسنة أخلاقهم هـ 44	شبيه أخلاقهم بأخلاق السباع هـ 43
أخلاقهم أخلاق عدلة هـ 46	جافية طرائقهم هـ 43
نسوان مديرات م 326	سفهاء هـ 46
	أهل جرأة وغش هـ 46

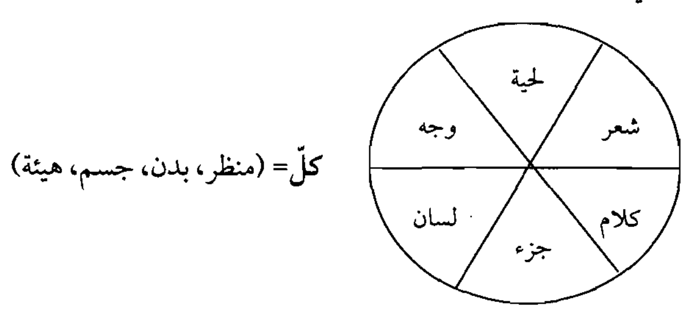
عُنِيَ الرحَّالة بالهيئة الخارجية للناس الذين يلقاهم في رحلته، فاهتمَّ ببيان إطار عام لأشكالهم، وألوانهم، ولغاتهم، باعتماده سبكاً معجمياً بين المفردات الاسمية (هيئة، مناظر، أجسام، أبدان). ظهرت علاقة شبه الترادف بينها، إذ عُدَّ الترادف وشبهه من درجات السَّبك ومقوماته[1]، فهو نمطٌ من أنماط التكرار، ولم يقصد بها الرحَّالة إلَّا الشيءَ نفسَه، معتمداً كلَّ لفظة وما يناسبها من وصف، فالمناظر والهيئة بين الجمال والقبح، أمَّا الأجسام والأبدان فغالباً ما يُشار إليها بالشكل أو اللون.

ظهرت ظاهرة لغوية أخرى في تحقيق السَّبك المعجمي في هذا الوصف وهي اعتماد المصاحبة المعجمية[2] للمفردات، إذ مثَّلت المفردات السابقة كُلّاً تندرج ضمنه المفردات

(1) انظر لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب محمد خطابي، ص 24؛ نقلاً عن Halliday and Ruqaya Hassan، Cohesion in English 203p

(2) المصدر السابق نقلاً عن Cohesion in English 282p، أراد هاليدي ورقية حسن بالمصاحبة المعجمية بيان علاقة رابطة بين زوج من الألفاظ، مثل علاقة التباين وعلاقة الترادف، وعلاقة الدخول في سلسلة مرتبة كالكل للجزء والعكس.

الآتية: (شَعْر، لحية، وجه، لسان، كلام) وهذه المصاحبة أدخلتنا في سلسلة مرتبة بين الكلِّ والجزء، فحقَّقت بذلك أيضاً سبكاً معجمياً في الوصف أدى إلى التماسك، كما يبدو في الشكل الآتي:



فاللون بين السُّمْرة والسواد، واللسان بين الاختلاف والوحشة، واللِّحى بين الوجود والعدم، ممَّا أدى إلى مزاوجةٍ وصفيَّةٍ بين رحَّالة وآخر باهتمامهم بالشيء نفسه، نظراً لتشابه الظروف المحيطة، كما ويبدو لتأثير الوصف في نفس الرحَّالة دوره في التقديم والتأخير الذي يسلكه كما في:

نحيفة أجسامهم	**= الوصف + مفردة دالة على الوصف الخلقي**
جميلة هيئتهم	

وانعكس الأمر في قوله (مناظرهم قباح) عند تأثير القبح في نفس الواصف، فالنَّحافةُ باديةٌ منذ الوهلة الأولى للموصوفين، ويظهر الجمال كذلك بعين الرضا، قبل أي تفكير بالهيئة المرئية، أما القُبح فاستدعى التأخير الذي أوحى بصمتٍ طويلٍ بين الموصوف والوصف، وكأن الرائي للمناظر فكَّرَ، ودقَّقَ، ثم استاءَ فجاء وصفُه معبِّراً عن ذلك.

ويبدو التأثير أيضاً في التنكير والتعريف للمفردات الدالَّة على الوصف الخلقي كما في:

لسان وحش ≠ **لسانهم وحش**

ألسنة مختلفة ≠ **لسانهم مختلف**

فاللِّسانُ من الوحشية والاختلاف ما يستدعي التنكير، فيُعلي التنكير من غربة الرحَّالة إثر غربة اللفظ.

أمَّا في الوصف الخُلُقي فتبدو لنا اهتمامات الرحَّالة أثناء تنقُّلهم باعتماد التكرير المعنوي في التراكيب السابقة، فالهياكل السطحية لتراكيب الوصفِ الإنسانيِّ دلَّت في مضمونها على المعاني التي أراد إيصالها، وبدت نظرته جليَّةً بإعادة المعنى، سواء أكان ذلك على مستوى الرحلة الواحدة أم الرحلات المدروسة جميعها.

يأتي تكرار المعنى في الكلام تأكيداً له وتشييداً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كُرِّر فيه الكلام، إما مبالغة في مدحه، أو في ذمِّه أو غير ذلك[1]، وظهرت مقابلة المدحِ والذمِّ باتِّخاذ التكرار عند الرحَّالة في الموضوعات السالفة الذِّكر، إذ يكيّف العنصر المكرَّر بكيفيَّة بيئته النفسيَّة في واقع المرسل وما يلاقيه، وليس بغريبٍ على العربي المتنقِّل أن يكون اهتمامه منصبّاً على كلٍّ من (الدين، العلم، القوة، المال، المعاملة)، فالدين ملاذه الآمن، وفي العلم ما يذلِّل التحديات والصعوبات المواجهة بتواصله مع أهل المكان المرتحل إليه، سواء أكان علم أدب وفنون، أم علم مهارة، والمال ظاهر الوصف دالٌّ على حياة مريحة وميسَّرة، أمَّا القوة فهي مصدر الاستقرار والمَنَعة والراحة للمرتحل إليهم أولاً، وللمرتحِل ثانياً.

لم يكتفِ الرحَّالة بالوصف لما بدا لهم من الأوصاف الإنسانيَّة، بل أصبحوا في كثير من المرات أفراداً في المجتمعات التي يزورونها، يتقلَّبون من مجتمع لآخر، ويتأثَّرون بانعكاس الذات في مرآة الآخر، فيصفون طابعاً عامَّاً للمرتحل إليهم، يُؤطِّرون فيه صورةً لهم، ليطبعوها في ذاكرتهم وذاكرة متلقِّيهم.

اعتمد الرحَّالة في رسم صور التعامل الإنساني على مبدأ إيهام التضاد، الذي يُعَدُّ من وسائل السَّبك المعجمي[2]، إذ لم تكن تراكيب الوصف مطابقة بالمعنى الحرفيِّ المعجميِّ، بل تدخل في باب الطِّباق، وتشير إليه.

(1) انظر المثل السائر، ابن الأثير، 3/ 8.

(2) البديع في البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبدالمجيد، ص 117.

بدا ذلك في الأزواج المتقابلة الآتية:

(أ) أهل + ضيافة / لباقة	≠	أهل سوء/ هبل/ غش
(ب) ظرف + دراية / لباقة	≠	طبع غليظ كالبربر
(ج) أصحاب + همة / مروة	≠	أخلاق البهائم / السباع
(د) كُلٌّ عفيف	≠	بلد فاحش
(هـ) مبغضين للشر	≠	مستهترون بالنبيذ.

عدَّ ابنُ الأثير المطابقةَ من باب التناسب بين المعاني، وقال: «سُمِّي هـذا النـوع (المقابلـة) لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين، إمَّا أن يقابل الشيء بضـده، أو يقابـل بـها لـيس ضـده»[1]، «وفي الثاني من المناسبة والتقارب ما يجعله متقابلاً»[2]، فقابل الرحَّالة مـثلاً الضـيافة واللباقـة بالسوء، والسوء ليس ضداً لهما، وإنما هو ضد الحسن، إلَّا أنه لمَّا كانـت الضـيافة واللباقـة مـن باب المعاملة الحسنة، أعطـى هـذا التقابـل صـورتين متغـايرتين للأقـوام الموصـوفة، في كلتـا الحالتين، وكذلك الحال في الأزواج المتقابلة الباقية.

وبالنظر إلى المقابلة الأخيرة نجد نظرة العموم والخصوص باديـة في الوصـف، فخطـاب (كلّ عفيف) هذا عموم يقابل خطاب (بلد فاحش). وما اندرج أسفل العمومين أعـلاه يُعـدُّ خصوصاً لكلِّ عموم، فتكون العفَّة أساسَ بغض الشر، ويؤدِّي الفُحشُ إلى الاستهتار بشرب النبيذ.

---

(1) المثل السائر، ابن الأثير، 3/ 172.

(2) السابق، 3/ 180.

- **الوصف بالفعل**

وُظِّفَ الفعلُ في إظهار الوصف الإنساني خَلْقاً وخُلُقاً، فظهر الاهتمام في هذه التراكيب بالحدث أكثر ممَّا سبق، علاوةً على دلالة الزمن. جاءت الأوصاف ذات دلالة ثبوتيَّة في صيغة الماضي، وذات دلالة استمراريَّة في صيغة المضارع، يبدو ذلك في الجداول الآتية:

- **الوصف الخارجي**

الشكل	اللون	اللسان
عظُمت أجسامهم ع 38 استرخت أجسامهم ع 38 غلُظت ولانَتْ فقارات ظهورهم ع 38 صغُرت أعينهم ع 38 بعضهم يحلق اللحى وبعضهم يفتلها مثل الذوائب ع 132 يحلقون لحاهم ف 138	ابيضَّت ألوانهم ع 38 احمرَّت أعينهم ع 38	ثقلت ألسنتهم ع 38

- **الوصف الداخلي**

يرجعون إلى مروة ع 123
يسمُون إلى معالي الأمور ويتنافسون فيها هـ 43
يحمون الغرباء م 390
يجلُّون الشريف ويرحمون الضعيف م 298
يشغبون إلى الأمراء م 249
حسُنت سيرتهم هـ 46
ظهر خيرهم هـ 46

عادات في الشكل	عادات في المضمون
يلبسون القلانس ف 159	يتبرّكون بعواء الكواكب جداً ويفرحون به ف 156
يلبس الخطباء الأقبية والمناطق م 136	يقتلون السارق كما يقتلون الزاني ف 156
يكثرون التنعُّل وتسطيل العمائم م 135	يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفر م 130
يلبسون الأردية كل عالم وجاهل م 182	يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ع 132
يصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشتبكة م 183	يسيرون في البحر حتى ربما غاب أحدهم عامة عمره في البحر ع 83
يأكلون لحم التيس م 190	يتباهون بالملك والمكاثرة في الماء ع 162
يأكلون القمح ف 138	يظهرون جميع أمورهم هـ 36
يعملون من الشعير حساءً يحسونه الجواري والغلمان ف 159	يخفون أمورهم في أكثر الأمر ويسترونها هـ 36
يحلّون ويرتحلون ف 122	يشاكلون الأسد والشمس هـ 44
يمشي الرجال قدام الجنازة والنسوان خلف م 363	يؤخّرون الظهر ويعجلون العصر ويستقرون بالجامع م 137
ينامون على السطوح وهم في تعب م277	يختمون في رمضان في الصلاة ثم يدعون ويركعون م114
يحبون رؤوس السمك م 200	يطفّفون ويخسرون ويفسقون م 117
يجعلون على جنائز النساء قباباً عالية وحشة م 136	
يلبسون الأردية كل عالم وجاهل م 182	
يمشون خلف الجنائز يسلون الميت م 182	
تخلو أسواقهم أيام الجمع م 199	

بدا الوصف بالفعل دالاً على الصفات نفسها التي ذكرت في الوصف بالاسم، بيد أنها اتّخذت هنا منحىً آخر عند المسعودي الذي ربط الهيئة الشكليّة بمناخ المكان، إذ قال: «وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم، فاسترخت أجسامهم وغلُظت ولانت فقارات ظهورهم، وخرز أعينهم» ع 38، وقال «صغُرت أعينهم، لاجتماع الحرارة في الوجه» ع 38 وقال: «فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة، وقلة الرطوبة، فاسودّت ألوانهم، واحمرّت أعينهم، وتوحّشت نفوسهم، وذلك لالتهاب هوائهم وإيراد الأرحام في نضجهم،

حتى احترقت ألوانهم، وتغلغلت شعورهم، لغلبة البخار الحار اليابس» ع 38.

وهذا التفسير العلمي يلائمه الوصف بالفعل، فيتحقَّق الحدث، ويرتبط بالزمن، وفقاً للمناخ المتغيِّر من مكان إلى آخر، وربما يتغيَّر المحدث أيضاً، فيزول التأثير، أو يقلُّ وفقاً لذلك.

وفي وصف معاملات الناس بعضهم بعضاً في الأماكن المرتحل إليها يختار الرحَّالة منها ما يهمُّهم، وما ينعكس عليهم بالنفع والفائدة مثل خطاب: «يحمون الغرباء..... إلخ»، ولم يكثروا منها في هذا المجال من الوصف لملاءمتها الوصف بالاسم، إذ فيها من التأثير ما يثبتها في النفس.

ويبدو استخدام الفعل الماضي مناسباً للتعليل، مع التعليلِ العلميِّ الذي لجأ إليه الهمداني عندما قال «حسُنَت سيرتهم، وظهر خيرهم، وكثُرت حيلهم، ولطف مكرهم، وانكتمت أسرارهم لأجل خفَّة حركة عطارد وطول اختفائه» هـ 46، إذ يرى في علم الفلك ما ينعكس على الناس وتصرفاتهم، فيقول أيضاً: «وحركات أنفسهم تليق بحركات الكواكب في سرعة وقوفها على الشيء» هـ 36، ويقول: «فهم يشاكلون العقرب والمريخ لذلك......» هـ 48، و«فاستولى عليهم المشتري والحوت فلذلك.......» هـ 49.

يتجلَّى الوصف بالفعل في بيان عادات الناس المرتحل إليهم وتصرفاتهم، وتنقسم العادات المذكورة إلى الأقسام الآتية:

1. عادات لها أصل ديني، مثل: يزيِّنون بعدن السطوح.....، يستقرُّون بالجامع....، يقتلون السارق..... إلخ.
2. عادات دالَّة على خصوصيَّة طعام أو شراب أو ما شابه مثل: يصنعون زلابية، يحبون رؤوس السمك، يكثرون التنعُّل...... إلخ.
3. عادات شخصيَّة عامَّة مثل: يظهرون جميع أمورهم، يخفون أمورهم، يذهبون ويجيئون، يحلُّون ويرتحلون..... إلخ.
4. عادات غريبة مثل: يسلُّون الميت، يسيرون في البحر... يجعلون على جنائز النساء قباباً.... إلخ.

5. عـادات سـيئة مثـل: يتبرَّكـون بعـواء الكواكـب، يحرقـون أنفسـهم، يطفِّفـون ويُخسرون.... إلخ.

لازم زمن المضارعة الحديث عن العادات، لاعتمادها الذاتيَّة، وإن ميَّزت جماعـة مـا، إلَّا أنها تتغيَّر بتغيُّرات كثيرة، تتعرض لها الجماعات، وتختلف لعوامـل نفسـيَّة مكانيَّـة، ممَّـا جعـل الهمداني يعلِّل اختلافاتها جغرافيّاً، كما فعل المسعودي. واستخدام الفعل المضـارع هنـا دليـلٌ قويٌّ عـلى احتماليَّـة الأمـر، لـذلك لم يُجـزم الأمـر، بـل ورد مـثلاً «في أكثـر الأمـر.....، فهـم أكثر.....». ممَّا أدَّى بالرحَّالة إلى الاستنتاج، ثم ربط الأمر بالمكان فلكيَّاً وجغرافيَّاً، عندما فسّر الوصف وفقاً للمكان في مثل: «ومن كان منهم بالجملة إلى ناحية المشـرق، فهـم أكثـر تـذكُّراً وأقوى نفساً، ويظهرون جميع أمورهم، أمَّا الذين يميلون إلى ناحية المغرب، فهم أكثـر تأنيثـاً، وأنفسهم ألين، ويخفون أمورهم في أكثر الأمر، ويسترونها» هـ 36.

- **الوصف بالأداة**

استخدم خطـابُ أدب الـرحلات الأداةَ في الوصـف الإنسـاني، لإظهـار سـمات عامَّـة للموصوفين، سواء أكان الأمر لإثبات سمات معيَّنة أم نفي وجودها، يبدو ذلـك في الجـداول الآتية:

- **الوصف الخارجي**

الشكل	اللون	اللسان
الغالب على خلقتهم نحافة الخلق وخفة الشعر ع 83 الغالب على خلقة الديلم النحافة وخفة الشعر ع 121 الغالب على خلقهم النحافة وخفة اللحى والضخامة ع 63 الغالب على أهلها وفور الشعر واقتران الحواجب ع 124 ....في غلظة م 244 ....لهم جمال م 326	الغالب على خلقهم صفرة اللون ع 63 الغالب على خلقهم صُفرة وسُمرة اللون ع 83 الغالب على...... حمرة م244	ليس لسانهم بحسن م 317 لا يُفهم لسانهم م 226

- الوصف الداخلي

الدين	العلم
لا ديانة م 299 لا دين م 340 لا يخلو المذكر من فقه لا مذكر يفقه العوام م 376 لا فقيه إمام م 340 لا مذكر حكيم م 340 لا لخطيبهم خضر ولا لباقة م 273 لا يدينون لله بدين ف 22 لا يعبدون شيئاً ف 22 الغالب على........ استقامة الحال والفقه ع 84	لا علم م 299 لا يعرفون القراءة ف 163 لا يرجعون إلى عقل ف 22 لا عالم أديب م 355 لا يخلو الرئيس من علم م 326 لا يكلفون أهل العلم بتقبيل الأرض م292 في الأدب أئمة وأعلام م 300 لهم دهاء ومكر وتعمق في الرأي والنظر هـ 46 لهم ذكاء وفطنة م 389 لهم وعقل وفضل م 326
القوة	**المال**
لهم من العدَّة والبأس والقوة بالرجال والدوابّ والكراع ما يستصعب على السلطان أمرهم ع 72 لهم بأس على الغُزيّة ومنعة ع170 ليس لمحتسبهم هيبة ولا صرامة م 273 لا ترى لقرَّائهم ولا لمشايخهم هيبة ولا لمذكَّرهم قيمة م 338	الغالب عليهم اليسار ع 84 الغالب على أهل الجبال كلها اقتناء الأغنام ع 120 على حسن حال ويسار ع 72 الغالب على أهل هذا القسم الغنى والجِدَّة ع 45 في أعناقهم أطواق من ذهب وفضة ف 176 في شقاء ف 122

+ المعاملة

وصف إيجابي	وصف سلبي
لهم رسومات كثيرة حِسَان م 136	لهم دهاء وتجارب ع 123
لهم مروة م 389	لهم عقارب وهم في ذاتهم عقارب م 266
لهم لباقة وإسناد ودراية م 261	لا ترى لهم لباقة م 299

فيهم رفق بالغرباء م 360 فيهم وطاء وظرف ولطف وإحسان م 301 الغالب على ..... استقامة الحال ع 84 لهم في الخيرات رغبة وفي الأعمال حسبة م 237 لهم ..... معروف وصدقة م 389	فيهم نفخ وعجب ومراء م 249 لا ترضى طباعهم م 226 الغالب عليهم الغباوة والجفاء ع 37 الغالب عليهم أهلها العبث والفساد ع156 الغالب عليهم أهلها اللصوصية ع 99 في عداد البهائم ع 38 لا وقت طيب ولا قلب سليم م 376

+ العادات

عادات في الشكل	عادات في المضمون
لا يمدُّ أحدٌ يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة ف146 لا تبكي النساء على الميت ف 170 لا يكثرون من أكل اللحم م 199 ليس لهم زيت ولا شيرج ولا دهن بتة ف 153 لا يقطعون البكاء سنتين ف 170 لا يتبايعون بالدنانير ع 100 لا يستتر بعضهم من بعض ف 162	الغالب على.... سرعة الكلام والعجلة ع 124 الغالب على....... العجلة وقلَّة المبالاة ع 121 لا يزوّجون إلى غيرهم م 311 لا يطربون في الأذان م136 لا يزنون بوجه ولا سبب ف 162 لا يتوَّرع مشايخهم عن شرب الخمور ولا نساؤهم عن الفجور م 194

تجلَّى الخطابُ في هذا النسقِ الوصفيِّ وسيلة لتسجيل المشاهدات عبر أدلَّة بصرية، باعتماد القالب العباري المصاغ مثل: «الغالب على......». وبدا اللون والشكل بصرياً، واتَّضحت اللغة سماعياً أيضاً، فأدرك الرحَّالة ما يريدون وصفه، من هيئة سكان المكان المرتحل إليه، واعتمدوا الواقعية التسجيلية، في وصف الواقع، وتسجيل أحداثه.

وصفوا المظاهر المادية، وكان وصفُ الهيئة الخارجية أهمَّ المشاهدات التي وقف عندها الرحَّالة، فاعتمدوا آلية الصورة التوضيحيَّة لذلك. فالمال مثلاً ظهرت علامات وجوده ونتائج ذلك على المجتمع وأهله، والمعاملة إيجاباً أو سلبياً من العموم ما يجعلها تُلائم

التغليب، فجاءت الصور التوضيحيَّة معمَّمةً غير مخصَّصةٍ، يتحكَّم بها حسُّ الرحَّالة وأذواقهم.

استخدم الرحَّالةُ أسلوبَ التقابل، كما اعتادوه في التعبيرِ الوصفيِّ، فجاء الحرفان (في، لـ) مقابل (لا، ليس) في إثبات الصفة، أو نفيها، كما يبدو في الثنائيات الآتية:

1- لهم	عقل فضل ذكاء فطنة	≠	لا	علم/ عالم عقل/ قراءة
2- لهم	في الخيرات رغبة في الأعمال حسبة معروف وصدقة	≠	لا	دين/ يدينون يعبدون فقيه/ مذكر
3- فيهم	رفق بالغرباء ظرف لطف إحسان	≠	لا	ترى لهم لباقة ترى طباعتهم
4- لهم	لباقة دراية	≠	لا	ترى لهم لباقة / مروة

تبدو الأزواج المتقابلة السابقة معتمدة شبه التضاد، باللجوء إلى المقابلة في المعنى عموماً لا اللفظ بشكل خاص، بين كلِّ زوجٍ على حِدَة، وبين الأزواج في الجهة الأولى وما يقابلها في الجهة الثانية، كما لجأ الرحَّالة إلى شبه الترادف في رسم الصورتين، إيجاباً وسلباً، وكأنهم يقرِّبون الوصف لمتلقِّيه، ويشركونه وإياهم في التأثير، فيشعر بحسن القوم أو سوئهم. في عملية التلقِّي هذه.

ساهمت عمليةُ التلقِّي في رسم صور توضيحيَّة للموصوف، وجعلته في حضور قريب من المتلقِّي، فيسهل عليه تصوُّرُه والإحساسُ به كما يريد الرحَّالة.

الفصل الثالث

آليّات الخطاب في أدب الرحلات



آليّات الخطاب في أدب الرحلات

استخدم خطابُ أدب الرحلات الوصفَ، فما خرج الرحّالة من دياره إلّا لأجله، وما استطاع أن ينقل ظاهر رحلته وخفاياها إلّا به، كان يتكئ على آليات كثيرة تناقلها الرحّالة، وتداولوها من شخصٍ إلى آخر، واتخذوها وسائل لنقل الأحداث وبثّها، فأصبحت تعابيرهم اللغويّة واستعمالاتهم النحويّة مخصّصة ومحدّدة، يستطيع متلقّيها أن يتصوّرها، ويردّها إليهم.

جاء الشكلُ اللغويُّ في خطاب أدب الرحلات وسيلةً للتعبير عن الموصوف، فتفاعلت الألفاظ مع المعاني لإيصال مطلب الرحّالة، ولم يتفق الرحّالة على مطلب واحد في رحلاتهم المختلفة، فكلُّ رحّالةٍ يفضّل شكلاً على آخر، ويميل إلى استخدام أسلوب على آخر، انطلاقاً من ذاتيّة الوصف أولاً وأخيراً، وينبغي لمحلّل الخطاب أن يهتمَّ بدراسة بيانات ناتجة عن استعمالات حقيقية للتعابير اللغوية[1]، كما ينبغي أن يعمل على تحليل اختلافات الشكل اللغوي بين مرسل وآخر، وأهداف ذلك ومراميه، وما له من تأثير في متلقّي الخطاب.

محلّلُ الخطاب، إذن، «يعالج مادته اللغوية بوصفها مدوّنة «نصاً»، لعملية استُعملت فيها اللغة أداةً تواصليّةً، للتعبير عن المعاني وتحقيق مقاصد الخطاب. وانطلاقاً من هذه المادة يسعى المحلّل إلى وصف مظاهر الأُطر، في الإحداثات اللغوية التي يستعملها الناس، لإيصال تلك المعاني والمقاصد»[2]، فالخطاب لم يأتِ من فراغ ولا يخصّ ذاتاً مفردة ينبثق منها، وإنّما يتشكّل في إطار واسع يجتمع فيه أنماط كثيرة من بُنى ثقافية، ونفسية، واجتماعية، ومعرفيّة.

وظّف أدبُ الرحلة تراكيبه اللغوية، للتعبير عن (الأنا) والموصوف، وصوغ صورة واحدة منهما، يحمّلها حركةً نسقيّةً تُعلي مكانة (الأنا) والموصوف، وتؤسّس مبدأ اشتراك بينهما حيناً، وتنزع إيحاء التواصل، فتنفي دلالة إيجابيّة عن الموصوف حيناً آخر.

(1) انظر تحليل الخطاب، براون ويول، ص 327.

(2) المصدر السابق، ص 48.

جاء هذا الوصف في بُنىً لغوية عادية مألوفة، إلَّا أن تكرارها في أدب الرحلة أعطى وجودها مساحة من التأثير، وخلق مواقف إدراكية في فهمها.

أوجد اقترانُ (الأنا) بالموصوف شبكةَ علاقاتٍ تجدها في خطاب الوصف، وتحمل رصيداً نفسيّاً في تأطير نوعين من الحضور للموصوف، يبدو ذلك في تكرير تركيبين من شأنهما أن يُظهرا الموصوف، ويسلِّطا الضوءَ عليه، يتمثَّل التركيبان في نمطين هما:

1- نمط من التراكيب التفضيليَّة يقارن بين الموصوف وغيره، فيجعل له حضوراً لا يُضاهى، ويظهره بهيئة لا مثيل لها، وذلك كقول الرحَّالة: (أفضل، أجمل، أكبر، أزهى، أقدم، أعظم، وهكذا......).

2- نمط من التراكيب الاستدراكيَّة يظهر الموصوف بحالتين متضادَّتين، فيصف الموصوف بوصف ما ثم تستدرك ما يخالفه، وذلك في الوصل العكسي بـ (إلَّا أنَّ، وغير أنَّ، وهكذا......).

جعل الرحَّالة النمطين السابقين بؤرة وصف، يعبِّر بهما عن المعنى في نسقٍ وصفيٍّ يشيع في اختياراته، ويؤدي وظيفة تواصليَّة، ويحمل المعنى ويخرجه من وحدة لغوية في طور الاستعمال؛ لينتج معنى يؤديه أسلوبٌ وصفيٌّ، يعبِّر عن الموصوف الذي طالما شغل الرحَّالة.

جاء النمطان المذكوران للتعبير عن الأهداف الدَّلاليَّة الكامنة في الخطاب، إذ إن الوصف بهما يقدِّم إخباراً أو إعلاماً عن الموصوف، بيد أنه يحمل في ثناياه معانيَ وأفكاراً معيَّنة[1]، ويُسهم هذان النمطان أيضاً في تماسك الخطاب وتحقُّق نصيَّته، هذا التماسك قد نادى به هاليدي ورقيَّة حسن، وبيَّنا أن تحقُّقَه يتمُّ بتعلُّق عناصر الخطاب بعضها ببعض، بعلاقات أو أدوات شكليَّة ودلاليَّة كالإحالة، والتكرار، والحذف، والوصل، وغير ذلك[2].

---

(1) انظر اللسانيات، المجال، والوظيفة، والمنهج، سمير استيتية، ص 282- 284، إذ فرَّق المؤلف بين الدلالة والإيحاء هدفاً وإجراءً ونتيجة.

(2) لسانيات النص، محمد خطابي ص 16- 21، درس العلماء التماسك النصي (Cohesion) تحت مسميات كثيرة منها (السبك، الاتساق، الترابط) مقابلاً للانسجام (Coherence) أو الحبك أو الالتحام، وكلا المصطلحين يؤديان الهدف نفسه.

يهدف التماسكُ في الخطاب إلى إيصال الرسالة، وتحقيق التفاعل معها، فيظهر بين مكوناتها، على اعتبار أنه مقوِّمٌ أساسيٌّ من مقومات كلِّ جُملة فيها؛ إذ لا يمكن أن تُبنى الجملة دون وجود التماسك. ويأتي الوصف في طليعة الأساليب التي تعمل على تماسك الخطاب، فتجعل الموصوف مرتبطاً بالموضوع كلِّه[1]. وللوصف في خطاب أدب الرحلات آليّات كثيرة متَّبعة، كالتفصيل حيناً والإجمال حيناً آخر، والتكرار بإعادة ألفاظ معيَّنة أو بالمعنى، وكثرة الإحالات الضميرية والروابط الزمانية والتركيبية، وغير ذلك من الآليات التي تجعل النص متماسكاً ومترابطاً.

يُعدُّ نمطا المقارنة التفضيليَّة والوصلِ العكسيِّ من وسائل التماسك، فهما يعملان على إيجاد علاقات محدَّدة بين الموصوفات، فيحققان الربط الذي يكون بين المتفاضلين، والربط بين حالتين متعاكستين للموصوف نفسه، فتتعالق الأجزاء دلاليّاً وشكليّاً.

تؤدِّي المقارنة وظيفة اتِّساقيَّة، فيحدث الاتِّساق بين عنصرين يقارن الخطاب بينهما، ويحدث تماسك الخطاب بهذه المقارنة[2]، وهي كما عدَّها علماء الخطاب من أنواع الإحالة[3]، وذلك بإحالة مفردات مخصوصة في الخطاب إلى ما تدلُّ عليه، كالإشارة إلى دلالة عامَّة من التطابق أو التخالف بـ: (يشبه، خلاف، مثل..... إلخ)، والإشارة إلى دلالة خاصَّة كالكميَّة بـ(أكثر، أقلّ.... إلخ)، والكيفيَّة بـ(أجمل، أزهى.... إلخ)، فتسهم بذلك بالتماسك الدَّلالي للخطاب.

أمَّا الوصل العكسي فيقدِّم جملةً مركَّبةً تتكوَّن من عبارة أساسية بسيطة، وعبارة أو عبارات أخرى تعتمد على العبارة الأولى، فيربط بينها. وإنما يكون ذلك باتباع الطريقة التي تربط اللاحق مع السابق بشكلٍ منظَّم[4]، فقد يكون ذلك بربط صورتين من صور المعلومات

(1) انظر اللسانيات، سمير، ص 198- 200.

(2) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص 19.

(3) المصدر السابق، ص 16- 17.

(4)) المصدر السابق، ص 23 نقلاً عن Cohesion، 227p.

بينهما علاقة التعارض[1]، ويكون بأدوات مثل (لكن، وعلى الرغم من، غير أن، بيد أن..... إلخ). ويقدِّم علماء الخطاب تصوُّراً دقيقاً لصور الوصل عامة، ويذكرون أن التماسك، أو الترابط النحوي له دلالة تربط كلَّ جملةٍ في الخطاب بالجمل الأخرى[2]، إذ تترابط الجمل وتتناسق دلاليّاً وبأدوات لفظيّة كأدوات الربط، وأدوات العطف، وأدوات الشرط وغير ذلك. فلا بدَّ من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها[3].

وللمبدع اختياراته الخاصَّة، إذ يظهر أحد أشكال العلاقات على لغته أكثر من غيره، كالعلاقتين المذكورتين آنفاً. وتبرز أدوات وروابط في خطابه تصبغه بصبغة خاصَّة، وتؤدِّي إلى ترابطه وانسجامه، هذا الترابط أشار إليه الجرجاني، وبيَّن ضرورة اتحاد أجزاء الكلام، ودخول بعضها في بعض، واشتداد ارتباط الثاني منها بالأول، فتوضع الجملة في النفس موضعاً واحداً[4]. وليس «النظم» شيئاً إلا توخّي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، فيما بين معاني الكلم[5]، فتأتي المعاني في تماسك وانتظام لفظي، تتعلّق الألفاظ ببعضها وتأتلف، فيقول: «واعلم انّك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»[6].

ومن أكثر الآليات التعبيرية اتضاحاً في خطاب أدب الرحلات، آليتا المقارنة التفضيليَّة، والوصل العكسي.

---

(1) النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص 346.

(2) انظر نسيج النص، الأزهر الزناد، ص 42 وما بعدها.

(3) عُدَّت المقارنة عند بوجراند ضمن معيار الالتحام أو الحبك (Coherence) في ترابط النص، انظر النص والخطاب والإجراء، بوجراند، ص 103، أمّا الوصل فضمن معيار السبك (Cohesion)، ص 302/ 346.

(4) انظر دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، ص 93.

(5) انظر السابق، ص 252.

(6) السابق، ص 55.

آليَّة المقارنة التفضيلية

تُظهِر الصياغة اللغويَّة المعاني ظاهرها ومخبوءها، ويُؤثِّر ذلك في الذاكرة والإدراك الحسِّي لمتلقِّي الخطاب، وتحمل الكلمات والتعابير المستخدمة من مرسلها ملامح ذاته، فترسل ما يريد إيصاله بالدرجة الأولى، قبل إرسال ما تفرضه المواقف عليه. يبدو الأمر جلياً في استخدام أسلوب المقارنة التفضيليَّة في خطاب أدب الرحلات بكثرة، إذ للمعاني سلطة على ذاكرة الرحَّالة إثر ما يجد من طيب المكان وحسنه، فتتشكَّل القوالب التفضيليَّة، لتقارن بين هذا وذاك، وتُعلي مكانةَ موصوفٍ على آخر.

يبدو التفضيل أسلوباً مناسباً لإدراك الرحَّالة الحسِّي بالموجودات من حوله، ولذلك تراه يستخدم اسم التفضيل، فيعطيه قدرة كافية لوصف ما يرى من الأماكن والموجودات، وقد عرَّفه النُّحاة بأنه اسم مصوغ من الأفعال التي يجوز التعجب منها للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة، وزاد أحدهما على الآخر في تلك الصفة[1]. فجاء ترتيب الكلمات على طريقة معلومة، وعلى صورة من التأليف المخصوص، لرسم صورة تفاضليَّة تربط المفردات بسياقاتها، إذ ليس للكلمة معنىً منفصلٌ عن سياقها، بل معناها يحدِّده السياق الذي ترد فيه، ويقوم النحو ببحث العلاقات التي تربط بين الكلمات في الجملة الواحدة، وبيان وظائفها[2] في سياقاتها المختلفة، من هنا بدا سياق الخطاب في أدب الرحلات ملائماً للتفضيل والمقارنة، إثر المشاهدات العديدة التي يراها الرحَّالة، ويتسابقون بالمفاضلة بينها، فكلٌّ يرى في الوقوف على ما لم يقف عليه غيره مفاضلة خاصة له، قبل أن تكون مفاضلة لموصوفه، وإثبات تفرُّد للذات الواصفة يلائم تفرُّد الوصف.

لم يلجأ خطاب أدب الرحلة إلى التفضيل إلَّا وفي نفس منتهجه أهداف يسعى إلى

(1) انظر شرح ابن عقيل، بهاء الدين العقيلي، 2/ 163.

(2) انظر التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة، ص 123.

تحقيقها، وفي منظور وصفه إبراز رؤى ومواقف تزداد حضوراً وأهمية، واتّخذ التفضيل وسيلة للتعبير عنها. فعندما يأتي بموصوفين، ليفاضل بينهما، ينشئ صيغاً خطابية خاصَّة، ويربط الوصف بمعنى عام، من شأن هذا المعنى أن يتعلَّق بكلا الموصوفين، يكون الوصف موجوداً في العنصرين المفاضل بينهما، بيد أنه يتعلَّق بموصوف دون آخر، ويختصُّ به؛ وذلك بزيادة الوصف في عنصر على آخر، سواء أكان ذلك إيجاباً أم سلباً، فترجّح كفَّة الموصوف المفضَّل، ويتضح المعنى العام المقصود بالوصف، ويثبت باقترانه به وحده، فيصبح بذلك بؤرة الوصف المبتغى، ومقصد الرحَّالة بالوصف.

تُبنى الأفعال التواصلية في اللغة بناءً قائماً على التمثيلات الذهنية التي تتولَّد بشكلٍ تقريبيٍّ ومتفاوتٍ في آن عن أحداث العالم وأوضاعه[1]، ويقوم التواصل في التفاعل الفكريِّ واللغويِّ بين وجود الذات ووجود الآخر[2]. هذا الأمر جعل الرحَّالة يفاضل في كلِّ محطة يقف فيها ليدرك الآخر أولاً، وكُنه ما يرى من أحداث وأوضاع للعالم المحيط ثانياً، فأشار إلى أمور كثيرة خصَّت الموصوف، بالمدرك الشعوري كالجمال والحسن، وبالمدرك الحسِّي كالحجم والمساحة للأماكن المرتحل إليها.

تكفَّلت المقارنة التفضيليَّة بجانبٍ دلاليٍّ خفيٍّ، إذ دلَّت على استيعاب بُنية المفاضلة في أدب الرحلة، بأسلوب يدمج فيه المكوِّنات اللغوية والمقتضيات الثقافية من جهة، وعلاقة الموصوفين المتفاضلين من جهة أخرى.

صنَّف هذا الأدبُ أشياءَ العالم وأمكنتَه تصنيفَ واقعٍ ورؤية، وهو تصنيف يتطلَّب منه مطابقة كلِّ موصوف ما يلزمه من صفات تفاضليَّة، تميِّزه عن غيره، وتفرد له باباً وصفيّاً خاصّاً، كي يتفاضل ويتخصَّص.

تحلَّى رحَّالة القرن الرابع الهجري بوعيٍ تصنيفيٍّ يجعله يرفض الاعتراف بوجود

(1) انظر تحليل الخطاب الصحافي، ص 15.

(2) انظر اللسانيات، سمير استيتية، ص 692.

موصوفات متشابهة، بل يعمد إلى مبدأ الأحادية في النظر إلى الموصوف، ويعطيه من شرف اللفظ ما يناسب شرف المعنى، فيحفظ له حضوراً في الأذهان لا مثيل له، فالموصوف (أكبر، وأجمل، وأنزه، وأزكى، وأحسن، وأبرع...... إلخ)، وهذا الأمر يتكرَّر بشكل دائم، إثر كلِّ تنقُّل، فبساط التفاضل لا يُطوى، وحضور التفرُّد الأحاديِّ لا يزول، وكأنها الرحَّالة أراد أن يجعل من الحضور التفاضليِّ الذي أثبته للموصوف في خطابه دليلاً أكيداً وشاهداً حياً على حضوره هو نفسه في واقع الوصف، وليس المقصود الحضور الجسماني فحسب، بل لهذا الحضور تفرُّد يلائم الموصوف، وتفاضل يناسب تفاضله، واعتراف يرفض حضور أيِّ مُزاحم أو منافس له.

وبعد أن تحقَّق للرحَّالة ما أراد من إثبات التفاضل والتميُّز، وصل بذلك إلى درجة الرضا عن نفسه في ترحاله، إذ حصل على ما لم يحصل عليه غيره، وشاهد ورأى وسمع ما يستصعب معرفته دون الترحال. فصور التفاضل ليست مجرد دليل على ما شاهد، بل هي أكبر دليل على حضوره هو نفسه، وإثبات فردانيته وتميُّزه.

وفي الصفحات الآتية سأبيِّن أنماط المقارنة التفضيلية عند الرحَّالة في مجموعتين هما:

المجموعة الأولى: المقارنة المثبتة.

المجموعة الثانية: المقارنة المنفية.

جدول أنماط الإثبات

*** موصوف (1) + (أفعل من) + موصوف (2)**

- أوسع من الفسطاط وآهل من بغداد وأكمل من البصرة وأجلُّ من القيروان وأنظف من أردبيل وأعمر من همذان م 273

-.......... أكبر من برسخان م 246

-......... أوسخ من أردبيل م 255

- هي أجلُّ من الصغانيان م 257

- هي وحدها أكبر من همدان ص 117
- هي أكبر من آمل ص 125
- هي مدينة أكبر من خوار الري وسمنان أصغر منها وبسطام أصغر من سمنان ص 124
- آمل أكبر من قزوين ص 124
- .... أجلّ من زبيد وأعمر م 103
- .... أكبر من جرش هـ 261
- وهي أصغر من جُدَّة ص 23
- وهي أكبر من تبوك ص 24
- وصعدة أكبر وأعمر منهما م 261
- وهي مدينة أكبر من مهروبان ص 31
- وسائر الفواكه أقلُّ من ذلك ص 44
- هو أعظم من مهران ع 66
- هو أعظم من دجلة والفرات ع 72
- أطيب وأجود من الشيرق المقشَّر ومن دهن الجوز واللوز هـ 356
- فإنه أطيب من لحم الحمل الشهري هـ 357
- وفور الشعر فيهم أقلُّ ممَّا في غيرهم من المدن ص 63

*** السابق + مصدر التفضيل**

(1)

- بسطا أكبر منها عمارة وأكثر فواكه ص 124
- فإنها أكبر من أبرقوة وأرخص سعراً وأخصب ص 77

(2)

- هي أيبس تربة من آمل، وأقلُّ مطراً وأنداء من طبرستان ص 125
- ماؤه أشد عذوبة وحلاوة وبياضاً من سائر أنهار الإسلام ص 40
- صار المغرب أقل برداً من الجربى وأكثر يبساً ع 37
- جلده أشد حراً من جلود سائر الأوبار ع 72
-..... أشد حراً من سواحل الشام م 196
- هي أصح هواء من البصرة ص 58
-..... أطيب هواءً منها وأعذب ماءً م 103
-..... أعمر من يثرب وأكثر نخيلاً م 100

*** موصوف + (أفعل) + حذف (من)**

- هي أرحب وأنزه م 304
- كل بلد شديد البرد فأهله أسمن وأضخم وأحسن م63 - وأما..... فهي أعمر ص 119
- هي أطيب وأرحب م 195
-..... أبرد وأيبس ع 42
- الجامع.... أكبر وأبهى م 193
- النفس أطيب والخاطر أدق م 60
- ....أكثر عدداً وأخصب ص 175
- انخفاضها يجعلها أسخن ع 42
- الأبدان..... تكون أضعف والبرد عليها أغلب ع 78
-.....في أول الشهر أقوى وأشد وفي آخره أنقص وأضعف ع 79
- هو أحصن وأتْلَع وأوسع هـ 350

- أهله أظرف وأحلم، وبالخير والشر أعلم، وإلى أقاليم العرب ورسومهم أقرب، وقصباته أبهى وأطيب م 260

*** موصوف خاص + أفعل + موصوف عام**

- هو أخبث ما في هذا البحر من الأماكن ص 29
- هي أغنى بلاد فارس ص 31
- فلسطين أزكى بلدان الشام ص 43
- هي أجلُّ مدينة بالشام كلها ص 45
- هي أصغر كور فارس ص 67
- هو أنزه مكان بها ص 51
- هي أنزه شعب بفارس ص 78
- فساهي أكبر مدنها وأعمر ص 67
- العراق أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم ع 49
- هذا الإقليم .... وأعدلها وأفضلها ع 48
- ... أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي الجزيرة الكبرى هـ 3
- هي أقدم أسواق العرب هـ 70
- هو أكبر نهر رأيناه ف 137
- .... شرّ الأتراك وأقذرهم ف 138
- وصنعاء أقدم مدن الأرض هـ 82
- وهو أعلى وادي حرمن هـ 125
- وهو أعظم أودية المشرق هـ 147
- وهي أول بلد حِمْيَرْ هـ 172
- هو أول بلاد عك هـ 247

- هي أمنع ديار اليمن وأعزها هـ 247
- علاف خير أودية خولان هـ 249
- أهله أنجد همدان هـ 351
- فإن الرقة أكبر ما فيهما من المدن م 53
- هي أكرم الأوبار ع 71
- هذا الموضع أضيق أعبار هذا النهر ع 72
- هما أخصب مدن الجبال ص 117
- .... أضيق بلاد المشرق م 251
- هو أرخى مدن الناحية م 103
-... أجلّ أمصار المسلمين م 193
- فإنها أنزه الأماكن الثلاثة التي ذكرنا ص 165
- هو أعظم هذه الأنهار ص 166
- ....بأقبح بكاء وأوحشه ف 170

*** السابق + مصدر التفضيل**

(1)

- ....وأغزرها ماءً ع 72
- ....وأكثرها ثمناً ع 72
- ....وأكثرها خيراً وفقهاً وعمارة ورغبة في العلم واستقامة في الدين م 240
- هي أمدُّ الأقاليم مساحة وأفسحها ساحة وأفضلها تربة وأعظمها حرمة وأشرحها مدناً م 89
- ....وأكثرها أهلاً ومالاً ص 117
-..... أشدها حراً ويبساً ع 72

- ..... أكرمها كرماً وأكثرها خيراً وزرعاً وأعناباً وماشية هـ 249
- هو ألطفها خبزاً وأخفها خفة هـ 357
- .... أعدلها غذاءً وأصفاها هواء ع 48
- ما سهل منه أكثرها أهلاً ومالاً ص 117

(2)

- وهو أكثر الأقاليم علماً وفقهاً م 277
- وهي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً ص 165
- فإنها أكثر هذه البوادي أحياءً وقبائلَ ص 25
- وهي أعمر بلاد تلك النواحي مخاليف ومزارع وأغزرها مياهاً ص 26
- وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً ص 27
- سيراف أشد تلك المدن حراً ص 78
- هي أشد تلك النواحي برداً ص 123
- هو أعظم القمح حباً وأطوله شكلاً وأثقله وزناً ع 36
- ويذكر أهلها أنهم أكثر الناس فنداً وشهداً وعبداً ونقداً وصوفاً ع 36
- أهل خراسان أشد الناس تفقّهاً وبالحق تمسكاً م 260
- صفوفه أكثر بلاد الله نحلاً وعسراً هـ 350

(3)

- وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً م 240
- أهلها أحسن أحوالاً وأكثر أموالاً وأشد بأساً وأعظم خلقاً وأرسخ في العلم وأمكن في الدين م 237
- ما سهل منه فإنه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثرها نخيلاً م 176
- هي أشهم وأجمع قلوباً هـ 363

*** أفعل + موصوف عام + موصوف خاص**

(1)

- أعلاها جبل دُخار هـ 109
- أوسطها وغورها الباقل هـ 109
- أولها وأقدمها غمدان هـ 365

(2)

- أكثر أدمهم السمك م 196
- فإن أكبر مدنها فسا ص 78
- أكبر مدينة بها الطابقان ص 156
- فإن أكبر مدينة بها الدامغان ص 124
- أطول ساعات نهاره ثلاث عشرة ساعة ونصف ع 45
- أكثر مجامعها هزود هـ 265
- فإن أكبر مدنها آمل ص 124
- أكبر مدنها ببن م 268
- أعمر موضع بها رأس الطاق م 249
- أطيب الحمامات ما كان على الشط م 203
- أظرف الأقاليم العراق م 60
- أقدم آبار الأرض بئر سام بن نوح بصنعاء هـ 270
- وأعظم هذه المدن الري ص 122
- أنفس الرقيق ما يرتفع من بلاد الترك اليهم ص 108
- أعذب المياه وأخفها ماء جيجون ص 158
- أيسر أهل خراسان أهل نيسابور ص 108
- أكبر مدن إيلاق نوكث وتونكت ص 185
- أكبر هذه الأنهار برش ثم بارمش ص 179

*** السابق + مصدر التفضيل**

- أعظمها طولاً وعرضاً بحر فارس ص 17
- أشد هذا الإقليم برداً بعلبك وما حولها م 176

*** موصوف خاص + (من أفعل) + موصوف عام**

- صور بلد من أحصن الحصون التي على شط البحر ص 45
- وهي من أعظم كنائس الشام ص 46
- وهي من أقدم مدن فارس وأشهرها ص 76
- .... من أجلِّ المدن ص 77
- هو من أعجب البناء وأحكمه ص 64
- هي من أعظم البحيرات في المعمور ع 73
- هو من أوسع قيعان نجد اليمن هـ 243
- وهي مدينة من أنزه تلك المدن ص 187

*** السابق + مصدر التفضيل**

- من أكثر المفاوز لصوصاً وفساداً ص 137
- ورأس برط من أصحِّ اليمن وأطيبه وأعدله هواءً هـ 351
- .... من أصحِّ بلدان الشام تربة ص 46

*** موصوف (1) + أفعل + موصوف عام + (بعد) + موصوف (2)**

- هي بعد دمشق أنزه بلد بالشام ص 46
- هي أكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها ص 168
- وأكبر مدينة بهراة بعد هراة كروخ وأوفه ص 151
- وأكبر مدينة المدن بها بعد بوشنج كوسوى ص 151

جدول أنماط النفي

أنماط «ليس»:

- **ليس** في الإقليم أنزه ولا أطيب ولا أجود أهلاً ولا أحسن فواكه منها م 357
- **ليس** في الإسلام ناحية أكبر حظاً في الجهاد منهم ص 163
- ليس في الإسلام دار حرب هم أشد شوكة من الترك ص 163
- ليس في الإسلام ملك أمنع جانباً ولا أوفر عدة ولا أكمل أسباباً للملك منهم ص 164
- ليس في أنهار فارس نهر أكثر عمارة من هذا النهر ص 74
- ليس بالعراق بعدما ماءٌ جارٍ ولا شجر ص 58
- ليس بما وراء النهر وخراسان بلد أحسن قياماً بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى ولا.... أكثر عدداً على قدرها في المساحة منهم ص 165
- ليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكاً من بخارى وأكثر أهلاً على قدرها ص 171
- ليس بجميع فارس أصح هواء وتربة من كازرون ص 78
- ليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أكبر من نيسابور ص 140
- ليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها ص 23
- ليس باليمن بناء أرفع منه
- ليس باليمن كنيسة أعظم منها ص 54
- ليس بهذه الكورة مدينة أكبر من أرجان ص 67
- ليس بجميع اليمن مدينة أكبر ولا أكثر أهلاً ومرافق من صنعاء ص 26
- ليس بالحجاز مكان هو أبرد من رأس هذا الجبل ص 24
- ليس لهم في البلد نهر أعظم منه ص 146
- ليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة ص 187

- ليس من العراق إلى خراسان بعد الري مدينة أكبر من إصبهان وأكثر خيراً منها ص 117
- ليس يخرج من الفرات شعبة أكبر منه ص 59
- ليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد أعْمَرَ بالناس على دوام الأيام من مسجد هراة ثم مسجد بلخ ثم مسجد سجستان ص 150
- يقال إنه ليس في أقاليم السودان من الحبشة والنوبة والبحة وغيرهم إقليم هو أوسع منه ص 35

أنماط «لا»:

- لا يعلم بسائر الجبال ونواحي الديلم جبل أعظم منه ص 123
- لا أعلم في الإسلام بلداً أجلّ منه م 63
- لا أعرف للمسلمين اليوم بلداً أمصر ولا ثغراً أجل منها م 147
- أكيس من أهلها لا ترى في التزاويق والبناء في الإقليم م 265
- لا أعرف له في الإسلام من عديل م 272
- لا ترى أخف من ماء أريحا م 183
- لا أطمع من أهل مكة ولا أفقر من أهل يثرب ولا أعف من أهل بيت المقدس م 62

أنماط «ما»:

- ما رأيت أعجب منها م 354
- ما رأيت أحسن منها م 329
- ما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم ف 160
- ما رأيت في الإسلام أعجب من دورها ولا أحسن م 353
- يقال إن ما في النجب أسير منها ص 42

أنماط «لم»:

- لم أرَ ولا بلغني في الإسلام بلد أحسن خراجاً من بخارى ص 164

- لم أرَ بالعراق ولا بمكان أعذب ولا أحسن منظراً منه ص 47
- لم أرَ أعظم أمراً من هذه الزلزلة ولا أطول مكثاً ع 60

يحمل الوصف في ذاته قيمة، إذ إن إسناد صفة لموصوف مَّا يُعدُّ إرسال حكم بشأنه، وإكسابه وصفاً، وإبداء موقف منه، وطريقة مخصوصة في رؤيته، وقد تكون هذه القيمة عامة مجرَّدة، وقد تكون ذاتيَّة بنسب متفاوتة، وعلى وجوه مختلفة[1]. يصدر الواصف أحكامه الذاتيَّة على الموصوف، فالحكم على الشيء فرع لتصوُّره. ويكون هذا الحكم ضمن مرجعيَّة ثقافيَّة، وبعض الضوابط المطروحة إلى حدٍّ ما، فيصطبغ بصبغة وجود تعبِّر عن مرسلها في الدرجة الأولى، فكأنَّه يبادل الموصوفَ عطاءً بعطاء، فيناسب الإبداع الوصفي ما وهبه إيَّاه الموصوف من قوَّة التعبير، ووجدان اللفظ، وشحنة القول.

عند النظر في الأمثلة السابقة تبدو لنا صور التفاضل ضمن الأنماط الآتية:

أولاً: موصوف (1) + (أفعل من) + موصوف (2)

يرسم أدبُ الرحلة علاقةً بين الموصوفين في هذا النمط، تخضع لمحدَّدات معيَّنة، فهي علاقة ينبغي أن تقوم بالأصل عند تواجد المحددات في الطرفين الموصوفين، بشرط زيادة طرف على آخر، فمبدأ التساوي في هذا الوصفِ التفاضليِّ مرفوض، إذ إنَّ وجود الموصوفين يتطلب وعياً بتميُّز أحدهما على الآخر، في المساحة أو العمران أو الجودة أو غير ذلك. ولكن قد يكون الأمر معكوساً مثل: (أوسخ، أصغر، أقل). فالأساس الذي تُبنى عليه المفارقة اللغوية هو مفارقة التعبير المنطوق للمعنى المقصود الذي يحتمله السياق اللغوي، أو الموقفُ التبليغيُّ الراهن[2]. فلم يقصد الرحَّالة من هذه المقارنة السلبيَّة إلَّا التعبير عن عدم إعجابه بكلا الطرفين، تفاضَلا أو لم يتفاضلا، فلم يقصد إبراز صورة أحاديَّة لأحد طرفي الوصف، كما يوحي ظاهر اللفظ.

(1) انظر الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجاً، محمد الناصر العجيمي، ص 432.

(2) انظر المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، محمد العبد، ص 17.

ثانياً: السابق + مصدر التفضيل

من المعروف في نظرية الخطاب أن إصدار المنطوق يقتضي من المتكلِّم أن يقوم بأربعة أحداث هي: الحدث اللغوي، والمغزى منه، والتأثيرات، والنتيجة[1]، ويبدو في هذا النمط اقتران الحدث بالمغزى عند ذكر مصدر التفضيل، فهو يشير إلى ما يتحقق في التفضيل، ويبيِّن محدِّده الخاص، ليكون وقع تأثير التفضيل أكثر من سابقه. ومهما يكن من أمر فإنَّ الذي ينبغي ملاحظته أنَّ ذكر المصدر هنا يمايزُ بين أنماط التفضيل، فقد يشمل نوعاً من التكرار الإثباتي لمفاضلة الموصوف، فالتقييد بالتمييز يؤكِّد المفاضلة، ويثبتها مرة أخرى، فعندما يقول الرحَّالة مثلاً: «أرخص سعراً، أعذب ماءً» فإنَّ في ذلك تثبيتاً للصفة أكثر من الاكتفاء بالمفاضلة دون المصدر، وذلك لوضوح المفاضلة من صيغة التفضيل، ففيها من الدلالة ما يكفي للوصول إلى المعنى. أمَّا في: «هي أصحُّ هواءً، أشدُّ عذوبةً»، فالأمر مختلف، وذلك لعدم معرفة نوع المفاضلة ومحدّدها إلَّا بوجود المصدر، ورغم ذلك فالمصدر يمدُّ الوصف ثباتاً بثباته، ويقوِّي حدث المفاضلة فيه.

ثالثاً: موصوف + (أفعل) + حذف (من)

للتفضيل وظيفة عاطفيَّة تعبيريَّة، تعلي من شأن المفضَّل، وترفع درجته عن المفضول. ويبدو في هذا النمط تقدير (من) التي تشير إلى المفضول[2]، وذلك بتكثيف الدلالة على المفضَّل، فلا يعير الخطاب المفضول كثير اهتمام، بل يُفهم ضمناً من السياق، ويكتفي باسم التفضيل ودلالته التعبيرية. فحقيقة التنقُّل تتجلَّى بقرارات تفضيليَّة يتخذها الرحَّالة بهذا الأسلوب اللغوي، لأجل إبراز المفضّل، بغضِّ النظر عن حقيقة المفضول، فقد يكون قائماً بالفعل أو بالإيحاء، فالمكان قد يكون أرحبَ وأنزهَ وأطيبَ وأعمرَ من مكان آخر منافس له في

(1) انظر المصدر السابق، ص72.

(2) شرح ابن عقيل، 2/ 165.

الساحة نفسها، وقد لا يكون إلّا تعبيراً عمّا وراء التفضيل الحقيقي إلى تفضيلٍ نفسيٍّ، يتأثر بوضع الرحّالة، هذا الوضع هو الشكل الذي يرى المكان به، فيحوِّل تجربته الخاصة إلى مُعطىً ثابتٍ للمكان وشخوصه وأرجائه، فما لا يدرك وصفاً ظاهرياً يستشفُّ من مخبوء الموصوف، وخصوصيته.

رابعاً: موصوف خاص + أفعل + موصوف عام

تظهر في هذا النمط صورةُ الجزءِ والكلِّ، وتظهر علاقة تمايز الجزء، وتفاضله في كلِّه، ففلسطين مثلاً أزكى بلاد الشام، والعراق أشرف المواضع، وصنعاء أقدم مدن الأرض، وهكذا.. فالموصوف يعتلي قبَّة التفاضل. هذه البنية اللغوية ذات رصيد نفسي لدى الرحّالة، إذ عبَّرت عن تواصل حميم بينه وبين الموصوف من جهة، وتواصل آخر بينه وبين المتلقي، تأسَّس بالدلالة الإيجابيَّة والحيويَّة للموصوف من جهة أخرى، فجعل المتلقِّي يستشعر التفاضل معه، وذلك حين يتجاوز الجزء مفردات الكلِّ عامة، ويصبح محمَّلاً بحضور فاعل، فيكتسب دلالة جديدة في سياق التفاضل التعبيريِّ، ممَّا يبرز شفافيته ويظهرها، ويخفت ضوء الكلِّ المحيط به.

خامساً: السابق + مصدر التفضيل

يتخصَّصُ التفضيلُ في هذا النمط، ويتحدَّد بتمييز نوعه، كقول الرحّالة: «هي أزكى بلاد الله وأحسنها أشجاراً وثماراً»، فالتزم التفضيل بمجال محدَّد، ودلالة مخصَّصة، وقد لا يذكر الموصوف العام «بلاد الله، الأقاليم، النواحي.....» أو الضمير المشير إليه كقوله: «أهلها أحسن أحوالاً وأكثر أموالاً وأشد بأساً........» لدلالة السياق عليه.

سادساً: أفعل + موصوف عام + موصوف خاص

يظهر تقديم صيغة التفضيل في هذا النمط، فقال الرحّالة مثلاً، «أقدم آبار الأرض بئر سام»، ولم يقل: «بئر سام أقدم...» كالنمط السابق، وكذلك الحال في بقية الأمثلة، وهذا

تقديم يوحي باشتغال الرحَّالة بتفضيل هذا الموصوف، واهتمامه بأمر تفضيله، «فالألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدالِّ عليه أن يكون مثله أولاً في النطق»[1]، لذلك كان تقديم صيغة التفضيل على الموصوف لتأثير معنى التفضيل في نفس الرحَّالة، وهذا التأثير أوجد الترتيبَ النمطيَّ المبتدئ بصيغة التفضيل، فيرى عبدالقاهر الجرجاني «أن المعاني تترتَّب في النفس، وإذا فرغ المرسل من هذا فلا يحتاج إلى أن يستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل يجدها تترتَّب له بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها، فالعلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق»[2].

سابعاً: السابق + مصدر التفضيل

يتحدَّد التفضيلُ في هذا النمط بذكر المصدر، وفي هذا تقلُّ درجة التفضيل نوعاً ما، مقارنة مع سابقيه، بربطها بمعنى خاص للمفاضلة، وعدم إطلاق الأمر.

ثامناً: موصوف خاص + (من أفعل) + موصوف عام

عند مقارنة هذا النمط مع سابقيه تبدو الإشارة إلى وجود الموصوف ضمن محيط التنافس والتزاحم، هذا المحيط يشغل تفكير الرحَّالة، ويدقِّق مسلكه الوصفيَّ في التفضيل، فيجعله غير متثبِّتٍ من أمر التفضيل، ويخفِّف من وطأة التفضيل بهذا النمط، فيكون الخطاب: «من أحصن الحصون، من أقدم مدن فارس، من أعظم البحيرات، وهكذا...»، فالموصوف أقلُّ درجة في هذا النمط من موصوف الأنماط السابقة.

هذا النسقُ التفاضليُّ التزم مبدأ التقسيم والتصنيف في مسألة التفاضل، ومطابقة كلِّ موصوف بما يناسبه.

(1) دلائل الإعجاز، عبدالقاهر، ص52.

(2) المصدر السابق، ص 54.

تاسعاً: السابق + مصدر التفضيل

يتحدَّد هذا النمط كحال كلٍّ من النمط: «الثاني» و«الخامس» و«السابع» بالتمييز، إلَّا أنه أقلُّ الأنماط درجة تفضيليَّة، وذلك بتحديد الموصوف بالمصدر، علاوة على أنه: «من أفعل....»، وكأن الرحَّالة على وعيٍ تصنيفيٍّ بما يفاضل، فيعطي كل موصوف ما يناسبه من درجات التفاضل، ويقارن بين الموصوفات وفق ما يرى من مظاهر، ووفق ما يحسُّه من مكنونات خفيَّة تجاهها.

عاشراً: موصوف (1) + أفعل + موصوف عام + (بعد) + موصوف (2)

يذكر الرحَّالة في هذا النمط موصوفين مختلفين، يُفاضل بينهما، بعد أن يجعل الموصوفَيْن متفاضلَيْن على صورة الكلِّ الخاصة بهما، فيسلِّط الضوء بذلك على الموصوفين معاً، ويخرجهما من دائرة الكلِّ، ثم يأتي بموصوفه المفضَّل، ليكون أوضح ما برز في صورة الوصف، كالخطاب الآتي: «هي بعد دمشق أنزه بلاد الشام»، وقد يتغيَّر ترتيب الجملة مع الحفاظ على ترتيب الموصوفين، كما في: أكبر مدينة بعد قصبتها»، وبذلك يريد من متلقِّيه أن يستذكر الموصوف الأهم، ولا يغفل عنه في حضرة غيره، وإن كان غيره هو محطّ الحديث ومجال الوصف.

أمَّا بالنسبة للمجموعة الثانية، فيبدو أنها عبَّرت عن موصوف متفرِّد، بل يفوق الوصف، ويصل إلى أعلى درجات المفاضلة، ومن الإجحاف بحقه مقارنته مع موصوف آخر، وتفضيله عليه، بل لم يرَ الرحَّالة مثله، وليس هنالك غيره، ولا يُعرف له شبيه.

عوَّل الرحَّالة على أدوات النفي، في رسم صورة التفاضل المقصودة، فخرجت أنماط التفاضل المنفية الآتية:

أولاً: أنماط «ليس»:

1. ليس + موصوف عام + موصوف نكرة + (أفعل من) + موصوف خاص

2. السابق + مصدر التفضيل
3. ليس + موصوف عام + أفعل..... + معطوف منفي بـ(لا)
4. يُقال + جملة التفضيل

ثانياً: أنماط «لا»:

1. لا + (أفعل من) + الموصوف
2. لا + أعرف/ أعلم... + (أفعل من) + الموصوف
3. لا + أعرف/ أعلم... + موصوف عام + موصوف نكرة + (أفعل من) + موصوف خاص.

ثالثاً: أنماط «ما»:

1. ما + أعرف/ أعلم... + (أفعل من) + الموصوف
2. لا + أعرف/ أعلم... + موصوف عام + (أفعل من) + موصوف خاص + معطوف منفي بـ(لا)
3. يُقال أن + (ما)+.....

رابعاً: أنماط «لم»:

1. لم + أعرف/ أعلم.... + (أفعل + مصدر التفضيل + من) + الموصوف.
2. لم + أعرف/ أعلم.... + معطوف منفي بـ(لا) + موصوف نكرة + (أفعل + مصدر التفضيل + من) + الموصوف.

تبدو في التراكيب السابقة سيطرة الموصوف على وجدان الرحَّالة، فيأتي خطابه بطابع بهرجة لفظيَّة ونسيج لغوي مُغالٍ، يميل عن الواقعية بعض الشيء، فالمكان متفرِّد ليس له

مثيل، ويدور هذا التفرُّد في فلك اهتمامات الرحَّالة أولاً، ثم خصوصيَّة المكان ثانياً، وما هـذه الاهتمامات إلَّا ثمرة ترحاله، ونتيجة تنقُّله، لما شاهد من عمران ومناخ وحصانة، وغير ذلـك ممَّا سبق ذكره.

زوَّدت الأنماطُ التفاضليةُ السابقةُ الرحَّالةَ بقدر من المرونة في تقسيم الموصـوفات، فـلا ضيق ولا محدودية في إبصار التفاضل، بل إنه متعدِّد ومتفرِّع، ليصل كل موصوف ذي أهميَّـة، أيّاً كان مجالها، فهناك تنظيمٌ خفيٌّ بين السطح والمعنى يتكاثف فيه المعنى بشـكل كبـير، لرسـم صورة المفضَّل، وهذه هي الرسالة التي يريد الرحَّالة بثَّها لمتلقِّيه، ولكي يستطيع التقاطها عليه أن يعي تأثير الأمر في نفس مرسلها، فتتحقَّق بذلك عملية الاتصال المرجوَّة، ويصـل كلاهمـا إلى نقطةِ وصلٍ لمقبوليَّة مشتركة.

هذا الأمر ينقل الموصوف من عالمه الماديِّ إلى عالم الرحَّالة الفرديِّ، وينقل اللغـة كـذلك من مُعطىً اجتماعيٍّ إلى مُعطىً فـرديٍّ، تكتسـب فيـه التراكيـب خصوصـية تتعلـق بـالمتكلم، ويكشف مميزاتها المتلقي[1].

ينحو المبدع إلى إدهاش القارئ في تأليفاته واختياراته الواعية، وبخاصة إذا كان توزيعها على مساحة الخطاب يخضع لقـوانين داخليَّـة يقتضـيها نظامـه الـدقيق، فالحقيقـة العلميـة في الاختيارات الكتابيَّة خاضعة للتصوُّر الذاتي والمعرفي، الذي يجعل من الخطـاب في كُلِّيتـه لغـةً واحدة[2].

هذا ما يقصده الرحَّالة في تراكيب التفضيل المنفيَّـة، فهـو يحقِّـق النفـي بــ(لـيس) و(لا) مبتغى الرحَّالة في التفاضل، فينفي حدثاً زمنيّاً مُطلقاً دون تقييد بها، ليبـيِّن موصـوفاً متفـرِّداً، فانتفى حدث المعرفة لموصوف آخر يماثل المفضَّـل في التفضـيل المـذكور، مثـل: «لا أعلـم في الإسلام بلداً أجلَّ منه»، وانتفى مماثلة الحدث المقصود لموصوف آخر غير المفضل كقولـه: «لا أطمع من....، لا أعفَّ من......».

(1) انظر لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، أحمد مداس، ص 19.

(2) انظر المرجع السابق، ص 26- 28.

يعبِّر خطابُ أدب الرحلات، إذن، عن انطباعات ظاهرة لفظاً ومحجوبة دلالة، وترك الفرصة للمتلقِّي أن يرسم معالمَ ما يرى وما يستشفُّ بدقَّةٍ وأناة.

يبدو في استخدام «ليس» إطلاق الزمن المنفي علاوة على نفي الحال، فتركيب التفضيل يجعلها تشمل الزمن المطلق، كقول الرحَّالة: ليس في الإسلام......، ليس بالحجاز.....، ليس بجميع اليمن......، ليس بهذه الكورة..... إلخ.

وفي ذلك قرائن[1] تدلُّ على إطلاق الزمن بها، وتعميمه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، إذ إنه بهذا التركيب التفاضلي ينفي وجود مماثل للموصوف في ما مضى من الزمان، وحاضر الارتحال، وينفي أيضاً الاحتمال والتوقُّع في المستقبل، لما أعطاه للموصوف من مغالاة المعنى وبهرجة اللفظ، فلم يدع لمتلقِّيه فرصة التنبؤ بأحسن منه أو مثيل له.

وتنفي «لا» حدث الحضور والاستقبال[2] والمضيّ في هذا السياق كذلك، لدلالة تركيب التفاضل على إطلاق الزمن لإطلاق الحكم، ولمَّا كانت «لا» للنفي العام فإن تكرارها أحياناً واجبٌ لأنه معنىً من المعموم[3].

ويبدو ذلك في قوله: لا أطمع من..... ولا أعفّ من....... إلخ».

يلجأ الرحَّالة في هذا التفاضل إلى صياغة التراكيب القصيرة المتوازنة، وكأنَّ مفرداته تخضع لبواعث نفسيَّة محرِّكة له، فتتوازن في مفرداتها، ويؤثِّر الموصوف تأثيراً قوياً فيه، فلا يجد ما يناسبه وصفاً إلَّا قصر العبارة، وعظم الدلالة في النفي التفضيلي، وبذلك يعتلي الموصوف قمَّة الوصف إيجاباً وسلباً.

أمَّا في استخدام «ما» و«لم» فيتَّضح في ذلك خطاب معبِّر عن (الأنا)، وإظهار لها بشكلٍ جليٍّ، لتمنح الوجود بعداً حيوياً فعَّالاً، وذلك بإسناد حدث (المعرفة/ الرؤية) إلى الرحَّالة كما في «ما رأيت....، لم أرَ..... كما بدا الأمر في أيضاً: «لا أعلم......»، فيخلق الرحَّالة بذلك

(1) انظر شرح المفصل، ابن يعيش، 7/ 111- 112، يقول:» لا تكون «لا» إلَّا لنفي الحاضر، ولا يُنفى بها في المستقبل، وقد أجازه أبو العباس والمبرد وابن درستويه».7/ 112

(2) انظر بناء الجملة العربية، محمد حماسة عبداللطيف، ص 230.

(3) انظر أساليب النفي في القرآن، البقري، ص 23.

علاقة اتصاليَّة بين أطراف ثلاث «المرسل، الموصوف، المتلقِّي»، ضمن زمن يتسع في «ما» ويضيق أحياناً في «لم»، التي تصرف معنى المضارعة إلى المضيِّ في نفيها للحدث[1]، وضمن حدث يثبت في «ما»، ويزداد تأكيداً في «لم»، فهي آكدُ في النفي من «ما»، والنفي بها غير متوقَّع الإثبات[2].

كثيراً ما كان الرحَّالة يجعل من نفسه بؤرة للتفاضل، فتراه يسند الرؤية التفضيليَّة إليه، فحدث «الرؤية» يوحي بالذاتيَّة بالقياس إلى الأنماط السابقة، فالرحَّالة لا يرى أكثر مفاضلة من الموصوف، وهذا الأمر لا ينفي وجود مثيل له أو ما يفوقه تفاضلاً.

وملخَّص القول إن الرحَّالة هو المفضّل الذي يحكم مسألة التفاضل في الموصوفات، ورغم استناده إلى رؤى واقعية فإنه المقرِّر الأوَّل لطرفي التفضيل، وتبعاً لذلك تكون اختياراته اللفظية في نسق معيَّن، وضمن إطار محدَّد، قد تبدو هذه الاختيارات عادية، مكشوفة لا تحرِّك فكراً أو شعوراً، بل قد تشعر بالضجر في إصراره على الأحاديَّة والتفرُّد لموصوفه، لكنها بلا شك فيها من الغموض الشفيف ما يثير الشعور بالجمال، هذا الجمال الذي اصطبغ في كل مكان بلون، وأدَّى إلى تجدُّد دائم في عيني الرحَّالة، ونقل الأمر لمتلقِّيه. ساعده التجدُّد في خلق تفرُّد لا يزول، وسدّ شقوق متاعب الرحلة، باستحضار علاقات تسكن المكان.

(1) انظر التراكيب اللغوية في العربية، هادي نمر، ص 341.

(2) انظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، 1/ 308.

آليَّة الوصل العكسي

يُعَدُّ الوصلُ من مظاهر الاتِّساق في الخطاب، فهو يُحدِّد الطريقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منظَّم. معنى هذا أن الخطاب جُمل أو متتاليات متعاقبة خطياً، مترابطة تركيبياً ودلالياً، ولكي تدرك وحدة متماسكة تحتاج إلى عناصر رابطة متنوَّعة تصل بين أجزائه، ومن ذلك الوصل العكسي، الذي يعني على عكس ما هو متوقع[1].

درس هاليدي ورقيَّة حسن الوصل العكسي، وذكرا بعض أدواته مثل: «but»، «yet»، «however»، «never the Less» إلَّا أنَّ الأداة التي تعبِّر عن الوصل العكسي في نظرهما هي «yet»[2]، إذ إنَّ أدوات الوصل العكسي تعبِّر عن نمطٍ من العلاقات، فتربط ما يقال الآن بما يقال آنفاً[3]، ويعترف هاليدي ورقيَّة حسن أن التي تملك قوة الترابط في الواقع هي العلاقة المعنويَّة الضمنيَّة قبل أن تكون الأداة النحويَّة الخاصة بالربط، ومع ذلك فهما يُصرَّان على أن الشيء الذي يشكِّل دعامة النص هو وجود أدوات الربط فيه[4].

يبدو أن علاقة الوصل بين الجُمل في الخطاب تحقِّق اتِّساقه شكليَّاً وضمنيَّاً، إذ في اعتماد الجمل على أدوات الوصل تحقُّقٌ للمعنى، وإن اتضح المعنى بدونها، إلَّا أنَّ فيها ترابط أجزاء الخطاب، وتعلُّق بعضها ببعض، فتُفهم علاقة كلِّ جزء وآخر بالاعتماد عليها.

الوصلُ، إذن، وسيلةٌ من وسائل إبراز الجمال، يربط معنيين متَّخذاً الإيضاح وسيلة لإبراز جمال المعنى، فيعرضه جليَّاً؛ ليكون خالصاً بذاته أمام المخاطب، فيتدبَّره حقَّ التدبُّر، أو يتَّخذ الإيجاز وسيلة في عرضه، كيلا يتشتَّت الذهن في استيعاب المعنى[5]. يربط الوصل معنىً

(1) انظر لسانيات النص، محمد خطابي، ص 22- 23.

(2) انظر السابق، ص 23، نقلاً عن Cohesion، 227p

(3) انظر تحليل الخطاب، براون ويول، ص 300.

(4) المصدر السابق، ص301.

(5) انظر الفصل والوصل في القرآن الكريم، منير سلطان، ص 195.

بمعنىً لغرضٍ بلاغيٍّ[1]، أو هدفٍ يسعى الخطاب لإيصاله، فيعرض الخطاب في حالة الوصل العكسي حالتين للموصوف بأداة تقسم الموضوع جزءين، وتصوِّر الهيئة المقصودة، فيتَّضح المعنى ويثبت، بعدما توقَّع المتلقِّي عكسه.

يبرز جمال المعنى المقصود حين يُوجد مكتملاً ناضجاً موحياً، ليحقِّق كمالَ الفائدة، وكمالُ الفائدة في أن يظلَّ قادراً على الإفادة مؤدِّياً إلى معانٍ تتَّضح بوجوده، وتنبعث من إيحائه، ثم تترابط هذه المعاني الجزئيَّة، لتصوِّر المعنى الكليَّ أو الفكرة المقصودة[2].

يدلُّ وجود الوصل العكسي على أنواع العلاقات القائمة بين الجُمل، التي تتماسك بها، وتبيِّن أدواته مفاصل النظام الذي يقوم عليه الخطاب[3]، وملاحظة دلالاتها على مستوى العلاقة بين المفردات داخل الجُملة، وعلى مستوى الخطاب كاملاً، وذلك بإدراك مقولاته المجسّدة، وإشاراته الإخبارية، فهو وحدة دلاليَّة تشكِّل مضموناً، يضمن الفائدة التي يريد المرسل إيصالها عبر القناة.. يُعدُّ الوصل العكسي قالباً يلجأ أدب الرحلة إليه كثيراً، ليعلِّق وحداته الإخبارية في ما بينها، وفق مبدأ العلاقة العكسيَّة التي تحكم الموصوف، فلا تُؤخذ وحدة إخبارية بمعزل عن الأخرى، بل تثبت العلاقة وتتَّضح، بربط كلِّ وحدتين متعاكستين بأدواته، فيتشكَّل الخطاب بوجوده متماسكاً محكم البناء.

أمَّا البناء الخارجي للخطاب، فإنه يعطي المتلقِّي تصوُّراً عامَّاً عمَّا يريد المتكلم إثباته، وفي شيوع الوصل العكسي يبدو إصرار الرحَّالة على موقف له من الثبات ما توحي به عباراته، فتقوم علاقة التعارض بتنشيط مساحة عدم التوقُّع في ذهن المتلقي، ليصل الرحَّالة بذلك إلى أثر معيَّن يتشكَّلُ في رسم صورة واحدة للموصوف بلونين متغايرين.

بناءً على ما سبق، يتبيَّن أن أسلوب الوصل العكسي يعتمد آلية الصورة التجسيديَّة للموصوف، سواء أكان ذلك لبيان جماله أم قبحه، فيؤثِّر فكرياً وعاطفياً في نفس المتلقِّي الذي

(1) انظر المصدر السابق، ص 27.

(2) انظر المصدر السابق، ص 195.

(3) انظر نسيج النص، الأزهر، ص 37.

لم يتوقّع ما بعد أداة الوصل العكسي، فعرضت له رؤى مخالفة لما قبل الأداة، وبذلك تجسّدت الصورة الجماليَّة للوصف في خطابٍ فكريٍّ مؤسَّسٍ على رؤى الرحّالة وقناعاته.

وسأعرض الآن الأمثلةَ وفق العلاقة التي تنتظم طرفي الوصل العكسي.

*** وصل طرفين مختلفين للموصوف نفسه**

يصف الخطابُ في هذا النمط موصوفاً واحداً بصورتين مختلفتين، في تراكيب الإثبات، وفي تراكيب النفي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

- الوصل المثبت

وصف إيجابي/ سلبي + أداة الوصل العكسي + عكس الوصف المذكور

- غزيرة الماء رحبة، إلّا أنَّ ماءها ثقيل م 164.
- حارة في الصيف إلَّا أنَّ ليلها طيب م 91.
- حارة في الصيف غير أنَّ ماءهم ثقيل وتمرهم وسط م 101.
- حارة في الصيف غير أنَّ أسواقه ضيقة والأسعار بها غالية والثمار قليلة م 102.
- حسنة الأسواق... إلَّا أنَّ الأعراب بها محيطة والطرق إليها صعبة م 147.
- .....غير أنَّ قلعة الصراط في الهواء م 217.
- ....والتمور بها كثيرة ....غير أنها ضيِّقة الماء م152.
- قد خرِب حصنها غير أنها منيعة م 218
- كثيرة المرابطين قليلة الجاهلين ومستقر ملوك المسلمين، غير أنها ضيِّقة البيوت كثيرة الحريق منتنة مبرغثة حارة باردة، آبار مالحة وأنهار مذمومة واستراحات مؤذية وطينة وحشة م 251.
- كبيرة إلَّا أنَّ ماءها ضيِّق ونهرها ينقطع وأهلها غاغة وبها عصبيات وحشة م 252.
- ومشاربهم من أنهار تمد إلى جيجون غير أنَّ موادها تنقطع عنه في بعض السنة م 252.

- أهل جماعة وسنة، يحبون الغريب والصالحين، إلَّا أنها قليلة العلماء خالية من الفقهاء م 252.
- رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه، غير أنَّ أهلها جهَّال، وإليها الطرق صعبة م 173.
- بناؤن حُذَّاق وقرَّاء ليس مثلهم بالعراق وحسن نغم وجودة قراءة ومنظر وخبر، إلَّا أنها في كلِّ حين يغلب عليها النهر ويتأخَّرون عن الشط م 255.
- ..... إلَّا أنَّ الفساد فيه قد فشا م 260.
- صغيرة غير أنها نزيهة كثيرة الخيرات م 263.
- رفقة مباركة غير أنَّ البرد فيها شديد والثلوج كثيرة م 264.
- غزيرة المياه غير أنَّ حيَّاتها كثيرة وحرّها شديد م 265.
- حصينة طيبة غير أنَّ أهلها غاغة والقتل عندهم عادة وليس لمذكرهم فقه ولا عبادة، لسان قبيح وفسق فضيح، لا يشبع خبزهم ولا ينقضي حرجهم م 267.
- به مياه جارية وعساكر راتبة وخيرات كثيرة وحمامات طيبة إلَّا أنهم بخلاء ثقلاء، قليل العلماء، وبلد وحش منتن أحد كنف الدنيا، أهل مكر وغفلة لا ينظرون في العواقب ولا يعذرون أهل المذاهب، ولا مذكر فقيه ولا رئيس وجيه ولا معدل أديب ولا حاذق طبيب م 316- 317.
- .... وعلم كثير وعقل وحذق وإتقان، غير أنه شديد البرد ترى خدودهم في الشتاء مشقَّقة م 322.
- فمرو بلدة سريَّة لو لم تكن من أهلها خفيفة قد خربت إلَّا منازل طفيفة م 269.
- ما يؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع في فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحد، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى م 269.
- واعلم أنه مصر جليل، غير أنك لا ترى فيه سوقاً حسنة ولا خاناً لبقاً، ثم عوام كلَّما نعق ناعق اتبعوه مع عصبيات وحشة ورسوم غير حسنة م 274.
- لهم قني قريبة وآبار، كثيرة الخير، رخيَّة الأسعار، واسعة الحطب، حسنة الثمار إلَّا أنها

بليدة، خربة الأطراف، باردة، رديَّة الحَمَّامات، وبئس قوم إذا دارت الدائرات م 275.

- وهم قوم جياد إلَّا أنَّ ماءهم قليل م 275.
- أقلّ دار إلَّا وبها بستان وماءٌ جارٍ وقرىً كبارٌ، إلَّا أن بها كلَّ عيَّار، قد زادوا في القرآن، ورجعوا في الآذان، وخالفوا الإسلام م 276.
- لسان وحش، وبلد قذر، ومعاش قليل، إلَّا أنَّ عليها حصناً منيعاً م 276.
- وهو بلد كبير نحو فرسخ في مثله، إلَّا أنَّ أطرافه قد خربت م 327.
- وهو عين ماء مالح إلَّا أنَّه شروب ص 136.
- ونهرهم يشقُّ البلد غير أنهم لا يشربون منه م 32
- نفيسة طيِّبة وبلدة نزهة وعيشة راضية، إلَّا أنهم غاغة وفيهم سلامة وفي قلوبهم غلظة م 245.
- يحكمون عمل القسيّ إلَّا أنَّ أطرافها رخوة حسان، إلَّا أنَّ فيهم برداً، شهام وفيهم بله م 247.
- ... غير أنَّ في أهلها وهوائها برداً جفاة مع الغرباء بلية في الشتاء م 249
- هواء معتدل وماء صحيح وطعام نظيف وأضداد مجتمعة وخيرات كثيرة وأسعار رخيصة وعلم ودراية، إلَّا أن أكثرهم معتزلة، وهي من أهلها خفيفة ومدنها قليلة م 379.
- يجري خلالها الأنهار ويملأ غيظانها الأشجار، إلَّا أنه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك م 208.
- ..... غير أنَّ ماءها أخفّ ماءٍ في الإسلام م 172.
- ..... غير أنَّ مساجدها حسنة، وبها قصور جليلة ومتاجر مفيدة م 191.
- ..... إلَّا أنها في جزيرة ضيِّقة م 195.
- وهي مباخس قليلة الثمر قشفة، إلَّا أنَّ لهم مواشيَ كثيرة ص 105.
- والسوس الأقصى اسم المدينة، إلَّا أنها كورة عظيمة ص 34.

- مدينة وسطة من حد تاهرت، إلَّا أنها متقطعة لا يسلك إليها إلا في القفار والرمال ص 34.
- بلدان السودان بلدان عريضة إلَّا أنها قفرة ص 34.
- كانت كبيرة إلَّا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم ص 36.
- وأما السقنقور فإنه صنف من السمك إلَّا أنَّ له يدين ورجلين ص 40.
- يجب أن تكون حارة لتأثير الكواكب إلَّا أنَّ ما يظهر من بخار الأرض يغلب على البلد ع 56.
- وبرطاس أمة عظيمة من الترك بين بلاد خوارزم ومملكة الخزر إلَّا أنها مضافة إلى الخزر ع 71.
- وهي تنقسم في نفسها مثل هذه الأربع نقط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب إلَّا أنها غير ذات نسبة من الفلك ع 26.
- أمرهم شورى بينهم غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه، جاء أرذلهم وأخسُّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه ف 122.
- والرب الذي في السماء أكبرهم إلَّا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق ف 139.
- له خوص دقاق، إلَّا أنه مجتمع ف 157.
- وكان في طاعته إلَّا أنه لم يكن داخلاً في الإسلام ف 168.
- هو كذلك إلَّا أنَّا قد اجتهدنا.... ف 149.
- وهي ثلاث بحيرات، فيها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة إلَّا أنه ليس في جميعها شيء يلحق غوره ف 164.
- الأنهار متقاربة منها نفيسة غير أنَّ أطرافها قد خرجت، وقد خفَّت من أهلها وتشعَّث حصنها م 315.
- بها علم كثير، لا تخلو من إمام ونظار إلَّا أنَّ خبزهم أثير وأدمهم كربة وعيبهم كثير م 302.

- مياسير بأموال وإنعام، مشاهير بإلطاف وإكرام إلَّا أن لها عيوباً وأحزاناً، ليس بها مبنى على رسم البلدان والسوق في الدور والباعة نسوان... م 300.
- خربة الأطراف، رديَّة الحمامات، لا حسنة الأسواق ولا كثيرة الأجلّة، غير أنها جيدة الهواء وفي أهلها وطاء م 299.
- قوم أوطياء يحبون الغريب إلَّا أنهم لصوص م 304.

الوصل المنفي

أداة نفي + وصف إيجابي/ سلبي + أداة الوصل العكسي + عكس الوصف المذكور

- ليس لهذه المدينة قرى إلَّا أن مزارعهم مفترشة ص 129.
- غير واسعة الرقعة إلَّا أنها عامرة حسنة م 242.
- ليس بالكثير إلَّا أنها رحبة منعمَّة، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم، طيِّبة الفواكه مع كثرة م 264.
- لا بها حرٌّ ولا براغيثُ ولا هوامّ، إلَّا أنها جنَّة يرعاها بقر، قوم غتم، لا سخاوة ولا ظرافة، تحت عمائمهم فجّار، وفي معاملتهم فساد م 325.
- لا عفنة ولا سبخة، ولا ملولة ولا كربة، إلَّا أن في هوائها يبوسة وفي أهلها جفوة وفي لسانهم رخاوة وفي رؤوسهم خفة م 273.
- ليس بهما عامل لبني أمية إلَّا أنه يخطب بهما لهم ص 36.
- ليس للملك فيه حق، غير أنهم يؤدَّون إليه في كل سنة من كل بيت جلد سمّور ف 158.
- ليس له من الأمر والنهي في شيء، إلَّا أنه يعظم ويسجد له إذا دخل إليه ص 131.
- لا يظهر إلَّا في كلِّ أربعة أشهر متنزهاً ف 191.
- لا تسلك إلَّا من مواضع معروفة ص 37.
- لا يكون في مكان إلَّا في النيل ص 40.
- فلا يجوز هذا الدرهم إلَّا في عمل بخارى وحده ص 175.

- لا ترى الحصى إلَّا في صحن جامع طبرية م 181.
- لا تكون إلَّا في تلك الأنهار ص 130.
- لا تُسلك إلَّا عن الضرورة ص 134.
- لا تُسامت إلَّا ما بين خط الاستواء هـ 8.
- لا تكون إلَّا في بلد حارّ هـ 235.
- لا يخالطهم إلَّا طيء هـ 272.
- لا يُرى إلَّا على خط الأفق هـ 7.
- لا يُشرب إلَّا من السيل هـ 360.
- لا يعمل أهل اليمن حلاواهم إلَّا به هـ 356.
- لا يكون إلا بنجران هـ 358.
- لا يكون إلا بصنعاء هـ 355.
- ما علمت مدينة في برٍّ ولا بحرٍ فيها قوم من الفرس مقيمون إلَّا وهم عيون تلك المدينة ص 84.
- لا تجد في بلدان الإسلام أهل ثروة إلَّا والغالب على أكثرهم صرف نفقاتهم ص 162.
- لا يكون الإنسان منه في مكان إلَّا وهو في نهر ونخيل ص 57.
- لا يُسامتهم من الكواكب الجارية كوكبٌ إلَّا أن يكون أقصى عرضه في الشمال هـ 8.
- لا يمكن للغريب أن يظهر إلَّا أن يضيء النهار م 255.
- لا أعلم في ما بين العراق واليمن والشام مكاناً إلَّا وهو في ديار طائفة من العرب ينتجعونه في مراعيهم ومياههم، إلَّا أن يكون بين اليمامة والبحرين ص 25.
- لا تسامت أحد من سكان الأرض إلَّا من كان منهم على خط الاستواء هـ 8.
- ليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلَّا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه ص 163

- لا مدينة فيها إلَّا وفيها عجائب البنيان بالصخور والمرمر والبلاط ع 35.
- ليس منها كورة إلَّا وفيها طريفة أو عجيبة لا تكون في غيرها ع 35.
- ليس بخراسان مدينة كبيرة إلَّا وبها من أهل خوارزم جمع كبير ص 170.
- لا يسقط فيه الثلج إلَّا ومعه ريح عاصف شديد ف 114.
- لا يكون لفقيه من أهل الأمصار شرط إلَّا ولهم أبلغ منه وأعذب لفظاً وأوقع معنى وأقرب اختصار هـ 83.
- فلا يراه أحد من رعيته إلَّا خرَّ لوجهه ساجداً له ف 193.
- لم يبق أحد إلَّا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ف 159.
- ليس من قرية إلَّا يخرج منها فارس وراجل ص 163.

عند النظر في الأمثلة السابقة تبدو لنا أداة الوصل العكسي تفصل بين حالتين متغايرتين، سواء أكان الوصف مبتدئاً بإثباتٍ أم بنفي، إذ يعمد الرحَّالةُ إلى نقل أخبار عن موصوفه بطريقة الوصل العكسي، ومن الثابت أنه لا يكون خبر حتى يكون مخبّر به ومخبَر عنه، لأنه ينقسم إلى «إثبات» و«نفي»، و«الإثبات» يقتضي مثبتاً ومثبتاً له، و«النفي» يقتضي منفياً ومنفياً عنه[1].

يريد الرحَّالةُ، إذن، أن يثبت وصفاً لموصوفه، ويريد أيضاً نفي صفة عنه، لكنَّه في الحالتين يستدرك ما يخالف الإثبات والنفي، فيعمد إلى الوصل العكسي لإيصال ما يريد، فيبدو الخبر إيجاباً، ثم يأتي بما هو عكسه، فينقلب سلباً، ويبدو سلباً، ثم يستدرك ما يقلبه إيجاباً.

يقوم الرحَّالةُ بنقل الخبر، فهو صادرٌ عنه ويحصل من جهته، وتعود التبعة فيه عليه، وهو يثبت ما جاء به وينفي ما أورده. إذ يكون مزجي **لإثباته ونفيه، ومؤكّداً وناقضاً فيهما**[2]. حكَّم رحالة القرن الرابع الهجري ميوله في ذلك، وطغت ذاتيته- شاء أم أبى- على الخبر المنقول، فجاء الوصل العكسي دليلاً على ذلك في نقل صورتين متقابلتين للموصوف نفسه، فكأنَّ

(1) انظر دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص 541- 543.

(2) انظر المصدر السابق، ص 543.

الرحَّالةَ ينقل ما يراه ثم يستدرك لنقلِ ما يراه غيره، أو ينقل ما يجب أن يُقال ثم يستدرك، فينقل ما يريد أن يقال، أو ينقل ما هو ظاهر ثم يستدرك، فينقل ما هو مخبوء.

جاء الإثباتُ إيجاباً، وذلك بذكر محاسن الموصوف المتعلِّقة بمظاهر الحياة الطبيعيَّة في الأماكن المرتحل إليها، ثم انتقض سلباً، وجاء الإثبات سلباً فاستدرك الرحَّالةُ أوصافاً للموصوف تُوازن الخبرَ المنقولَ، فتقلِّل من تأثير سلبيته. هذا الأمر جعل كلَّ جملتين متعاكستين ترتبطان في ما بينهما وفق قاعدة الربطِ الخطيِّ الخلافيِّ (بالأداة)، فكلُّ جملتين متتاليتين في النص ثانيتهما تخالف الأولى ترتبطان بأداة ربط[1]. إنَّ ترتيب الجُمل في الخطاب لا يخلو من أمرين اثنين تبعاً لحتمية الخطية في الكلام، فهي إمَّا واردة في البداية أو لاحقة عليها؛ ولذلك تحتاج في بعض الأحيان إلى ربطٍ خطيٍّ يتعيَّن به نوع العلاقة بين الجملة والأخرى[2]، حيث تربط أداةُ الوصل العكسي كلَّ جملتين، وتعبِّر عن علاقة منطقيَّة بين العنصرين المربوطين.

يُنجز الخطاب عند التلفُّظ به، ويتَّخذ حيِّزاً يكون به كائناً مستقلاً بنفسه، وتترابط جُمله، لتُشكِّل وحدات مركبة، فلا يدركه الفكر إلا منظَّماً مرتَّباً، وهذا الترتيب تفرضه خطيَّةُ الخطاب، إذ ترد جُملُه في تتابع ضروري[3]، ويبدو ذلك في الأمثلة السابقة، إثباتاً ونفياً، بتسلسُل الجمل القصيرة المرتبة المنتظمة بأداة الوصل العكسي، في فصلها بين وصفين متناقضين للموصوف نفسه، وصف موجب، ووصف سالب، مثال ذلك:

(1) انظر نسيج النص، الأزهر الزناد، ص 28. استُخدم مصطلح «الأدوات المنطقية» للدلالة على أدوات الربط في العربية، إذ إنها علامات على أنواع العلاقات القائمة بين الجُمل، وبها تتماسك الجُمل وتبيّن مفاصل النظام الذي يقوم عليه الخطاب.

(2) انظر المصدر السابق، ص35-37.

(3) انظر السابق، 42.

أولاً: من الإيجابية إلى السلبية:

1. يصف الرحَّالةُ المكانَ بإيجابياتٍ عديدةٍ، فيبدو بصورة مشرقة، بيد أنّه سرعان ما يتغيَّر عند النظر إلى ما بعد أداة الوصل العكسي، ويبدو الأمر في الخطاب الآتي:

إيجابية					سلبية	
هواء معتدل	وماء صحيح	وطعام نظيف	وأضداد مجتمعة	إلا أنَّ	أكثرهم معتزلة	وهي من أهلها خفيفة
وخيرات كثيرة	وأسعار رخيصة	وعلم ودراية			ومدنها قليلة	

يوحي الوصف بانتقالٍ من الإيجابيَّة إلى السلبيَّة، رغم الأوصاف العديدة الموجبة المذكورة بداية، إلَّا أنَّ الرحَّالة لا يُبقي هذا المؤثرَ الإيجابيَّ دون انزياح، فيعطي أوصافه نسيجاً لغويّاً متبايناً، وينحو بذلك نحو السلبية غير المتوقعة.

2. يصف الخطابُ مكاناً طيِّباً، ثم يُفاجِئُ المتلقِّيَ بسلبيات كثيرة تُخرج المكان من الوصف السابق، وتُظهره بصورة مغايرة تماماً، ومثال ذلك:

إيجابية		سلبية		
حصينة طيبة	غير أنَّ	أهلها غاغة	والقتل عندهم عادة	وليس لمذكرهم فقه ولا عبادة
		لسان قبيح	وفسق فضيح	لا يشبع خبزهم
		ولا ينقضي هرجهم		

يبدأ الوصف موجباً ثم يتجه نحو السالب، ويستمرُّ ذلك في أوصاف عدَّة، ويأخذ بذلك بُعداً جديداً بفعل الارتباط الحاصل بين الإثبات والنفي في تقبيح صورة الموصوف، ليكون الخطاب بذلك واقعاً في السلبيَّة التامة.

3. يبيّن الخطاب الموصوف بدلالة إيجابية، تزول عنه بالنظر إلى ما بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

إيجابية		سلبية
أمرهم شورى بينهم	غير أنهم	متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه، جاء أرذلهم وأخسُّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه.

بدو الأمر في قمَّة الإيجابيَّة، لكنه ينتقض بأداة الوصل العكسي، فتعقد مقارنة خفيَّة بين الحالتين المتعاكستين، توحي بالسلبيَّة التامَّة التي يريد الرحَّالةُ إيصالها، على عكس ما هو متوقَّعٌ من بداية الوصف.

4. يرسم الخطابُ المكانَ بأجمل صورة، ثم يُظهر ساكنيه بأقبح وصف، فيبدو نسقٌ خطابيٌّ بمفارقة غريبة تتضح في الآتي:

إيجابية				سلبية		
لا بها حرٌّ	ولا براغيث	ولا هوام	إلَّا أنها	جنة يرعاها بقر	قوم غتم	لا سخاوة
				ولا ظرافة	تحت عمائمهم فجَّار	وفي معاملتهم فساد

يُوظّف النفي توظيفاً إيجابيّاً، بيد أنَّ هذا الأمر لا يطول، وتأتي أداة الوصل العكسي بما لا يُتوقَّع، إغراقاً بالسلبيَّة الموحية بالمفارقة العجيبة.

ثانياً: من السلبية إلى الإيجابية:

1. يبدأ الخطاب بوصفٍ سلبيٍّ للمكان، إلَّا أنَّه يجد له وصفاً إيجابيّاً يُذكر، فيقدِّمه بعد أداة الوصل العكسي، كالمثال الآتي:

سلبية		إلَّا أنَّ	إيجابية
وهي مباخس قليلة الثمر	قشِفة		لهم مواشٍ كثيرة

2. يصف الخطابُ صورةً سلبيةً للمكان، ثم يستدرك بوصف إيجابي، كالمثال الآتي:

سلبية		إيجابية
حارة في الصيف	إلَّا أنَّ	ليلها طيِّب

3. يصف الخطابُ الموصوفَ وصفاً عادياً، فلا يبدو مهمّاً أو مميّزاً، ثم يستدرك ما فات وصفه من إيجابيات تُذكر للمكان الموصوف، فيذكرها بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

سلبية	إلّا أنها	إيجابية		
ليست بالكبيرة		رحبة	منعّمة	رخيصة الأسعار

يوحي الوصف بانتقال من السالب إلى الموجب، وذلك ما لا يتوقّعه المتلقّي، فلم يصل الموصوف إلى درجةٍ عاليةٍ من السلبيَّة في نظر الرحَّالة، لذلك يجد له مخرجاً منها، ويدخله في إيجابيّةٍ مُصطنعةٍ نوعاً ما، يرضي بها الرحَّالة موصوفه الذي يبدو تعاطفه معه؛ فيوازن طرفي معادلة الوصف.

نقل خطابُ أدبِ الرحَّالةِ وصفَ المكانِ من زوايا عدة، فبدا مزدوجاً مركباً، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أهميَّة هذا الازدواج في إيصال الوصف، حيث يُعدُّ منتجاً للخطاب، وناتجاً عنه في آنٍ واحد، فيتمثَّل وجود الموصوف هنا فيه، وتنعكس صورته الموجبة أمام مرأى الوصف السلبي، فيصل الرحَّالة إلى مبتغاه في وصله العكسي، وتتَّضح صورة المكان وانعكاساتها.

وقد يُنشئُ الرحَّالةُ في الوصل العكسي معادلةً وصليَّةً لا تهدف إلى الإيجاب أو السلب -كما سبق- بل تثقل طرفاً واحداً لتكثيف دلالته هو، بغض النظر عمَّا أحاط به من موصوفات؛ وذلك بتخصيص الوصف به، واكتمال الحدث بوجوده، فلا وجود لتكوين الوصف إلا به. يتَّضح الأمر في الآتي:

1. يُوظِّفُ الخطابُ أداةَ الوصل العكسي توظيفاً مغايراً، يبدو فيه الموصوفُ-بعدها- هدفاً مرتجىً من الخطاب كلّه، ومثال ذلك:

العدم	إلّا	إيجابية
لا يكون في مكان		في النيل

2. ينحصر الوصف المقصود بها بعد أداة الوصل العكسي، فيأتي الخبر بعدها مقصد الخطاب، فلم يأتِ بها قبلها إلّا من أجل بيان أهميتها، ومثال ذلك:

العدم	إلّا	إيجابية
لا تُسلك		في مواضع معروفة

فليس هذا -إذن- نفياً، ولكنه أسلوب من أساليب الحصر في العربية[1]، فأداة النفي مستعملة لا لنفي الفعل عن الفاعل أو نائبه، بل لتأكيد قيامه به أو وقوعه عنه، وهذا لا يتأتّى إلّا في المذكور، بعد أداة الوصل العكسي المسمّاة هنا «أداة حصر».

ويظهر في المجموعة المنفيّة أمثلة مختلفة للوصل العكسي، منها ما أفاد التلازم مثل: (....... إلّا وقام.........)، إذ يتلازم الوصل مع الحدث في آنٍ واحد. ومنها ما أفاد الوصل الوجودي مثل: (......... إلّا وبها......)، فيقترن الوصل مع وجود ما يسعى الرحّالة إلى إثباته. ومنها ما أفاد الوصل التخصيصي مثل: (.......... إلّا من كان.......). فالرحّالة ليس واصفاً معرفيّاً فقط، بل هو أيضاً واصفٌ اجتماعيٌّ لما يرى من عوالم ترحاله.

تقوى التجربة الترحالية، ويتفاعل الفكر مع العالم المحيط، هذا العالم الذي يطرح المشابهات والمتماثلات أمام الرحّالة، ويطرح معها إشكاليَّة البحث عن جديد ينقله، ويصوِّره لمتلقيه. ومهما كانت صعوبة البتِّ في هذا الإشكال، فإننا نخرج بنتيجتين، أولاهما: تفاعل الرحّالة مع كلٍّ من: مظاهر الطبيعة، والكائن البشري الذي يقدِّم الواقع ويؤوِّله، والحضارة الإنسانية المتغيِّرة من مكان إلى آخر، ثانيتهما: أنَّ عمدة التفاعل، وأساسه هو المماثلة والمشابهة والمقابلة[2]، مهما كان التصوُّر الذي يريد الرحّالة إيصاله. وسيتَّضح الأمر جليّاً في المجموعة الثانية للوصل العكسي في الصفحات القادمة.

- وصل موصوفين مختلفين

يصفُ الخطابُ في هذا النمط موصوفين مختلفين، بصورتين مختلفتين، فيبدو تفضيل موصوف على آخر باستخدام أداة الوصل العكسي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

(1) انظر بناء الجملة، محمد حماسة، ص 282.

(2) انظر التلقي والتأويل، محمد مفتاح، ص 194.

- **الوصل المثبت**

موصوف (1) + أداة الوصل العكسي + اختلاف الموصوف (2) عن الموصوف (1)

- وهو حجر يُشاكِلُ الرُّخامَ إلَّا أنه أشدُّ بياضاً هـ 363.
- هي خصبة إلَّا أنَّ المنصورة أخصَبُ وأعَمَرُ منها ص 104.
- العجلانيَّة قرية كبيرة مقابلة لهينين إلَّا أنَّ هينين في وادي العبر هـ 171.
- وزرع رأسه في الكثرة مقارب لزرع جبل تخلى إلَّا أنَّ البرَّ في هنوم أكثر.... هـ 350.
- وهي أيضاً ناحية على ما وصفنا مذكورة في الأقاليم، غير أنَّ طنجة أجلُّ م 215.
- حسنة البيوت على ما ذكرنا من الشاش، غير أنَّ هؤلاء أسلم صدوراً وأقلُّ تخليطاً م 248.
- الصغانيان مدينة أكبر من ترمذ إلَّا أنَّ الترمذ أكثر مالاً وأهلاً، وللصغانيان قلعة ص 167.
- وسبيل هذا النهر في الشرب سبيل مصر في الزيادة إلَّا أنَّ أوقاتها مختلفة، فيركب الأرض وينبسط عليها ما لا يركبه نيل مصر ع 74.
- والكواكب السبعة التي هي النيران والخمسة المتحيِّرة وغيرها لها تأثيرات..... إلا أنَّ تأثيرات القمر في العالم الأرضي أبيَن منها لقربه منها وبعدها عنه ع 79.
- أرهق وقهال والورك خليطي إلَّا أنَّ أصل قهال حِمْيَرِيّ هـ 244.
- هما يتحركان بطبعهما صعداً إلَّا أنَّ أسبقهما إلى العلو النار ع 26.
- هما يتحركان بطبعهما سفلاً عند حركتهما إلَّا أنَّ أسبقهما إلى السفل الأرض ع 26.
- أوسع من الفسطاط إلَّا أنها متفرقة م 216.
- وهي في السعة نحو من اصطخر إلَّا أنها أعمَرُ وأجمعُ للبناء وأيسرُ أهلاً ص 76.
- بها وباصطخر وباءٌ إلَّا أنَّ خارج المدينة صحيح الهواء ص 76.
- تقارب في الكبر شيراز إلَّا أنها أصحُّ هواءً من شيراز وأوسع أبنيةً منها ص 78.
- وقد تفعل ذلك الريح الغربية في هذا الفصل إلَّا أنَّ الأغلب في ذلك الشمال ع 33.

- **الوصل المنفي**

أداة نفي + موصوف (1) + أداة الوصل العكسي + اختلاف الموصوف (2) عن الموصوف (1)

- فلم أذق ولا سمعت أن في جميع الدنيا ماءً أحلى منه إلَّا نهر المنصورة م 200.
- فليس مدينة أعمر ولا أكبر ولا أيسر أهلاً منها إلى آخر الإسلام إلَّا نيسابور فإنها في العرصة أوسع ص 122.
- والريُّ مدينة ليس بغداد في المشرق أعمر منها إلَّا أن نيسابور أكبر عرصة منها ص 119.
- ليس بهذه النواحي جبل عظيم مذكور إلَّا ما ذكرنا، غير أنَّ جبل سبلان أعظم من دبناوند والحارث سبيل أعظم منهما ص 119.

يعرض الرحَّالة في هذه المجموعة موصوفاته مرتبة، ويعتمد معياراً في ترتيبها، إذ تفصل أداة الوصل العكسي بين كلِّ عنصرين متعاقبين، لتبيِّن معيار انتظامها. أفاد هذا نوعاً من المقارنة بين العنصرين المذكورين، وأكَّد قوة الوصف لهما، هذه القوة تتصاعد بعد أداة الوصل، فتثبت زيادة مستوى القوة في الثاني على الأول، كما في الأمثلة الآتية:

1. وصف الخطاب موصوفاً بإيجابية، ثم وصف غيره بإيجابية أكثر، فما ذكر الأول إلَّا لبيان قوة الثاني، ومثال ذلك:

إيجابية		أكثر إيجابية
هي خصبة	غير أن	المنصورة أخصب وأعمر منها

2. يأتي الوصف عاديّاً مألوفاً للموصوف المذكور قبل أداة الوصل العكسي؛ لإظهار قوة الموصوف الذي بعدها، ومثال ذلك:

إيجابية		أكثر إيجابية
وهي أيضاً ناحية على ما وصفنا مذكورة في الأقاليم	إلَّا	طنجة أجلّ

3. يُظهر الخطابُ قوةً للموصوف الأول، وتبدو القوة أكثرَ للموصوف الآخر المذكور بعد أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

إيجابية		أكثر إيجابية
والكواكب السبعة التي هي النيران والخمسة المتحيِّرة ... لها تأثيرات	إلَّا أنَّ	تأثيرات القمر...... أبيَن

4. قد يكون القصدُ من الوصل العكسي إثباتَ قوة الموصوف الأول، وتميُّزه على الموصوف الثاني كما في:

إيجابية		أكثر إيجابية
تقارب في الكبر شيراز	إلَّا أنها	أصحُّ هواءً من شيراز

ويلجأ الرحَّالة أحياناً لإثبات قوة موصوف ثالث، غير الموصوفين المذكورين قبل أداة الوصل العكسي، وذلك مثل:

سلبية	سلبية	إلّا أنَّ	إيجابية
بها	وباصطخر وباء		خارج المدينة صحيح الهواء

يمكن أن ندعو هذه الآليات بآليات التماثل الوصفي، التي تفرضها ضرورة تفاعل الرحَّالة مع الظواهر والموصوفات من حوله، ومحاولة ربطها مشابهة ومقابلة، على أن الرحَّالة أدَّى بهذا طموحه للتعرُّف على ما أحاط به من إنسانية وعمران وطبيعة، في الأماكن المرتحل إليها؛ ليحقِّق نوعاً من التوافق والانسجام، وصِلات الوصل بينه وبينها.

أما في مجموعة النفي فيبدو الموصوف الأول بقوة تفوق قوة الإثبات، لكن ما بعد أداة الوصل العكسي يفوق الوصف الذي كان من حق الموصوف الأول، ويبدو الأمر بعرض الأمثلة الآتية:

1. يرسم الخطابُ للموصوف صورةً أُحاديةً لا مثيل لها، فيتميَّز على كلِّ ما يشابهه، من جهة، ويتميَّز على الموصوف الذي يصوِّره الخطاب، من جهة أخرى. يبدو الأمر في المثالي الآتي:

نفي الوصف	إلا	إيجابية
فلم أذق ولا سمعت أن في جميع الدنيا ماء أحلى منه		نهر المنصورة

2. يعرض الخطابُ سلسلةً متباينةً من الموصوفات، يبدو بها كلُّ موصوف بشكلٍ أُحاديٍّ متفرِّدٍ، وبدرجة مختلفة عن غيره، كالمثال الآتي:

نفي الوصف		إيجابية		أكثر إيجابية
ليس بهذه النواحي جبل عظيم مذكور	إلا	ما ذكرنا	غير أن	جبل سيلان أعظم من دبناوند
				والحارث أعظم منهما

إنَّ هذا الترابط يأتي وفق المبدأ الذي تنطلق منه وحدة الكون، والترابط بين أجزائه، وتبادل التأثير بينهما بالتجاذب والتنافر. هذه الوحدة توجب تشابهاً هنا، وتنافراً هناك، ومهما تشابهت الموصوفات فلا بدَّ أن تتميَّز واحدة فيها على أخرى أو أخريات، فمسألة تفوُّق الموصوف كانت تشكِّل قلقاً للرحالة، يفرض عليه اتخاذ القرار في الحكم، فما كان عليه إلَّا أن يحكِّم نزعته الذاتية في الحكم، قبل التميُّز الحقيقي للموصوف. أنشأ ذلك وجود حاجز عدم الدقَّة النهائيَّة، باعتبار تبعيَّة الحكم للرحالة الإنسان أولاً وأخيراً، وباعتبار انفصال الموصوف عنه انفصالاً لا يمكن إلغاؤه، وإنما يمكن تقليل مساحته أو توسيعها، وفقاً لحالته النفسيَّة الراهنة لحظة وصول مكانٍ ما، ومشاهدة جزئياته، فيوازي الوصف شعور واصفه، ويواكب حجم التغيُّرات التي تطرأ عليه، جرَّاء تنقُّله من مكان إلى آخر.

- **وصل الجزء بالكل**

يعرض الخطاب في هذا النمط تصوُّراً عامَّاً ثم يستثني منه جزءاً لا ينتمي للكلِّ الذي ظهر قبل أداة الوصل العكسي، وفي ما يأتي أمثلة ذلك:

- **الوصل المثبت**

موصوف عام + أداة الوصل العكسي + موصوف جزء مختلف عن الموصوف الكل

- فيها جميع الحيوان كله إلَّا السباع هـ 280.
- كلها في مستوى إلَّا سكندرة فإنها في جبال ص 156.

- باديتها جميعاً من علٍ إلَّا النبذ من خولان هـ 74.
- فيها الفصاحة إلَّا في قراها هـ 279.
- فهو يكون أكثر دهره صاحياً إلَّا في أيام الأمطار هـ 350.
- هذا بلد قشف قليل العمارة قليل الزروع إلَّا ما اتصل بها من مستقر الملك ص 32.
- فوجدها جامدة إلَّا ما شد رأسه بجلد الثعلب الأسود فإنه لم يجمد ع 72.
- وأكلوا لحومها إلَّا الرأس والقوائم والجلد والذنب ف 130.
- والترك كلهم ينتفون لحاهم إلَّا أسلبتهم ف 131.
- فأمَّا الحرُّ فإنك تجده من مصر إلى السوس الأقصى إلَّا في مواضع فإن بها جبالاً وبلداناً طاردة والغالب على الأندلس البرد م 219.
- كلُّ ما قارب الساحل جميعاً أملاح إلَّا اليسير هـ 301.
- الأنهار فيها ليست بالكبار إلَّا نهر الكر ونهر الملك م 304.
- كلما اشتد برد موضع في هذا الإقليم اشتد حرُّه، إلَّا سمرقند فإنها صلية في الصيف م 277.
- هو إقليم شديد الحرِّ، إلَّا السروات فإن هواءها معتدل وهو قليل الثمار إلَّا السروات م 107.
- تُفضَّل تمورها على سائر تمور الحجاز إلَّا الصيحاني بخيبر والبُردى والعجوة بالمدينة ص 25.
- الغالب عليها كلها الجبال إلَّا ما بين همذان إلى الري وإلى قم فإن الجبال هناك قليلة ص 119.
- وأقلُّ الفرق اليهود وأكثرهم المسلمون والنصارى، إلَّا أنَّ الملك وخاصته يهود ص 129.
- لكل منبر قرى ومزارع إلَّا بيكند فإها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم في بلدان ما وراء النهر وأكثر عدداً منها ص 175.
- كلهم في قباب إلَّا أنَّ قبة الملك كبيرة جداً ف 160.

- **الوصل المنفي**

أداة نفي + موصوف عام + أداة الوصل العكسي + موصوف جزء مختلف عن الموصوف الكل

- ليس بأرض مصر مدينة يجري فيها الماء دائماً غير الفيوم ص 40.
- ليس لقزوين ماءٌ جارٍ إلَّا مقدار ما يشرب ص 118.
- ليس بتلك النواحي بندق إلَّا بمدينة لاشتر فإنَّ بها بندقاً ص 119.
- فإنها قرى لا مدينة بها إلَّا سهمار ص 121.
- ليس بها نهر إلَّا قناة صغيرة للشرب ص 124.
- ليس بينهما وبين المدينة مياه ولا بساتين إلَّا نهر المدينة على باب المدينة ص 150.
- ليس لها ماءٌ جارٍ إلَّا نهر يجري في بعض السنة ولا يدوم ماؤه ص 154.
- ليست لهم بساتين ولا زروع إلَّا مباقل على هذا الماء ص 154.
- ليس بها عيون ولا أنهار إلَّا آبار ومراع ص 157.
- لا سوق لبكيل غير وَرْوَرْ وغُرق وريدة هـ 242.
- لا بأس بلغتهم إلَّا من سكن منهم القرى هـ 278.
- ليس بالصَّمان ماءٌ عُدَّ إلَّا ما كان مياه العرمة قربها هـ 281.
- ليس بها بحيرة ولا نهر إلَّا الأزرق م 229.
- ليس بها ماءٌ جارٍ سوى دجلة ص 53.
- ليس فيها مياهٌ إلَّا أنهار ص 56.
- ليس يرتفع إليها من ماء دجلة إلَّا شيء يسير ص 59.
- ليس لهم من دجلة زرع ولا شجر إلَّا الشيء اليسير ص 53.
- ليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلَّا شيء يسير ص 63.
- ما علمنا أحداً منهم جمع من العلم بأبواب الدواوين إلَّا نفراً يسيراً ص 88.
- ليس بين المدينة ومكة منزل يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة إلَّا الجحفة، ولا بين المدينة والعراق مكان يستقل بالعمارة والأهل جميع السنة مثل فيد ص 24.

- لم يعرف ما حواه هذا الإقليم من ذلك أجمع إلَّا بابل، لفضل موضعها وجلالة صقعها ....ع 48.
- فلم أرَ من الكواكب إلَّا عدداً يسيراً ف 154.
- ليس بجميع بمكة- في ما علمته- شجر مثمر إلَّا شجر البادية ص 23.
- ليس بمكة ماءٌ جارٍ ألَّا شيء بلغني بعد خروجي عنها أنه أُجري إليها ص22.
- فلم أرَ ولم أسمع أن به شجراً مثمراً إلَّا نخيلات ص 23.
- ليس به نهر تجري فيه السفن إلَّا بناحية الخزر م 307.
- لا تجري السفن إلَّا بجيحون ونهر الشاش م 277.
- ليس بجميع الجبال نخيل إلَّا بالصيمرة والسيروان وشابرخاست وهي نخل قليلة ص119.
- لا نهر فيها إلَّا بالعَشَّة والبُطْنَة ففيها غيول هـ 249.
- ليس يُعرف في الأرض معدن للمرجان إلَّا بها ص 34.
- ليس يوجد الأسود منها في العالم إلَّا في هذا الصقع وما قرب منه ع 71.
- ليس فيه بحيرة إلَّا بخوارزم مالحة وأخرى بسجستان وأخرى ببخار عذبتان م 277.
- ليس لهم اتصال بشيء من المهالك والعبارات إلَّا من وجه المغرب ص 35.
- ليس من بلد ولا رستاق ولا ناحية إلَّا وبها عدد كثير من بيوت النيران إلَّا القابيل ص 74.

تبدو في هذه الأمثلة وظيفة الانفعال وتتَّضح بعلاقة التداخُل بين الرحَّالة والموصوف، هذا التداخل يُعْنَى بالنواحي العملية أو القوة أو الجمال أو الطبيعة، كلُّ هذه العلاقات تبثُّ انفعالَ ارتباط الرحَّالة بموصوفه، ويأتي بعد ذلك بانفصال ما يحدث للموصوف، انفصال الجزء عن الكل.

في هذا مماثلة كونيَّة أيضاً، بيد أنَّ هذه المماثلة تقوم على ركنين هما: الأصل، والفرع، أو المستثنى منه، والمستثنى. فالأصل هو الذي يقاس عليه الفرع؛ لأن الأصل يكون معروفاً خصباً بالوصف ممتلئاً به، حيث يستوعب الفرع أو يمنحه شيئاً من وجوده لجامع عام ينتظم لأمر.

ربما تكون درجات الانفصال بين الكلِّ وجزئه تصورات خاصة بوجود شيء، ووجود ما يؤكِّده. وتبيِّن أداةُ الوصل العكسي وظائفَ هذه التصورات الكامنة في الكلِّ، وفق نزعة تجاذب وتنافر تحكم الموصوف الجزء وكلَّه، وتبادل التأثير بينهما على مبدأ الوجود للكلِّ وعدم الوجود للجزء. وعليه فإنَّ هويَّة الجزء في وجود كلِّه، إلَّا أنَّ وجودَ الكلِّ لا يعطيه تجاذباً ليضمّه إليه، فيبقى في الجانب الآخر لأداة الوصل العكسي، ويبقى الكلُّ موحياً بالوجود الذي لا يشعر بنقصٍ ما أو خللٍ يتخلَّله، بالرغم من رفضه هوية الجزء، واستقلاله عنها.

يبدو الأمر في الأمثلة الآتية:

1. يبدأ الخطابُ بوصفٍ عام للموصوف الكلِّ، ثم يصف جزءاً منه بوصف يخالف فيه الكل، كالمثال الآتي:

سلبية	إلَّا	إيجابية
كلّ ما قارب الساحل جميعاً أملاح		اليسير

2. يبدو الوصف عموماً، ثم يتَّخذ شكلاً خصوصياً، كالمثال الآتي:

سلبية	إلَّا	إيجابية
الغالب عليها كلّها الجبال		ما بين همذان إلى الري

3. يصف الخطابُ الموصوفَ وصفاً سلبياً، يُظهر استياء واصفه، ثم يُخرج من دائرة الوصف جزءاً لا ينطبق عليه الوصف، ومثال ذلك:

سلبية			إلَّا	إيجابية
هذا بلد قشف	قليل العمارة	قليل الزروع		ما اتصل بها من مستقرِّ الملك

نظر الرحَّالة إلى الموصوف نظرة عموم، فعمَّم الوصف، وأطلقه دون اهتمام بالجزء. نظر إليه لا على أنه تصوُّر شيءٍ واحدٍ، بل على أنه نمط من الأنماط المركبة الدالة على وجوده، ثم استثنى جزءاً منه لم يشكِّل وجوداً له، في الأنماط المركبة. فكلَّما زادت الخصوصيَّة في هذا الجزء زادت قوة الأجزاء المركَّبة التي يُبنى عليها حكم الوصف؛ أي أنَّ المدرك التصوريّ الكلّ هو القوة الوحيدة التي ينظر إليها في هذا الوصل، سواء أكان الأمر موحياً بالإيجابية أم السلبية.

يأتي الوصف بفاعلية مفوَّضة من الرحَّالة نفسه، هذا الرحَّالة الذي شاهَدَ، وعايَنَ،

وقرَّرَ. ويربط الوصل العكسي بين الكلِّ وجزئه، وفق قانون الاستثناء الذي يخرج اسماً من الحكم المقرّر لما قبله، بتخصيص صفة عامة، توجب إخراج الجزء من الكلِّ، كما في:

1. يؤكِّد الخطابُ وجودَ الوصف في المكان المقصود، ثم يستدرك منه ما لم يؤكِّده بذكر أداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

إيجابية	إلَّا	سلبية
فيها جميع الحيوان كلّه		السباع

2. يُظهر الخطاب الموصوف بصورة سلبية، ثم يستثني جزءاً لا يدخل ضمن الوصف السابق لأداة الوصل العكسي، ومثال ذلك:

سلبية	إلَّا	إيجابية
هو إقليم شديد الحر		السروات

3. يقع الوصف المقصود على ما قبل أداة الوصل العكسي، ولا يتمُّ لما بعدها، كالمثال الآتي:

إيجابية	إلا	سلبية			
وأكلوا لحومها		الرأس	والقوائم	والجلد	والذنب

فإنَّ مضمون هذا التركيب يثبت الوصف لما قبل أداة الاستثناء، وينفيه عمَّا بعدها، وفي هذا نفيٌ ضمنيٌّ لا تصريحي[1]، لوقع الوصف في ما بعد أداة الوصل العكسي.

يأتي الأصل هنا مقدمة للفرع الذي يتأخَّر بأداة الوصل العكسي، ليصبح هو المقصود بالوصف ومبتغى الرحَّالة به، فلا مشابه له من كلِّه، ولا مثيل له بينه، فتوحي دلالة تأخيره باختلافه عنه. ويبدو أمر تقديم الفرع على أصله أيضاً في أمثلة النفي السابقة.

نجد أن رحَّالة القرن الرابع الهجري ينطلق من فرضية مؤدَّاها اتخاذ موصوفه أنموذجاً أمثل، لردِّ كلِّ ما يحيط به إليه، باعتباره المرجعَ الأساسَ لما يصف، وبؤرة وجوده. وفي ذلك

(1) ليس المقصود الاستثناء نحوياً وإنما دلالياً أيضاً. انظر بناء الجملة، محمد حماسة، 282.

يقع الموصوف في المقام الأول للوصف، وما جاء بـها قبـل الوصـل العكسـي إلَّا تقـديماً لـه. وعندما يذكر الموصوف بعـد التقـديم لـه تثبـت بـذلك عنـاصر عمليـة الوصـف في حركيَّـة تفاعلها، لإيصال الموصوف وفق شبكة وصليَّة متناسقة. ومثال ذلك:

1. لا يوجد موصوف غير المذكور بعد أداة الوصل العكسي، فهو المبتغـى مـن تركيـب الخطاب، ويبدو ذلك في المثال الآتي:

نفي الحدث		إيجابية
ليس بها نهر	إلَّا	قناة صغيرة للشرب

2. ينفي الخطاب الحدث، ويتَّجه الأمر نحو السلبية، بيد أنه يجـد مـا يـوحي بالإيجابيـة، فيعرضه بعد أداة الوصل العكسي.

نفي الحدث			إيجابية
ليس بها بحيرة	ولا نهر	إلَّا	الأزرق

3- رغم وجود الموصوف في كلِّ مكان إلَّا أنه في المكان الموصوف يصل إلى التميُّز الذي لا يُضاهى، فيعطيه الخطاب طابع التفرُّد، حتى لو وُجد الوصف في أمكنة عديـدة، وبأشكال مختلفة.

نفي الحدث		إيجابية
ليس يعرف في الأرض معدن للمرجان	إلَّا	بها

وهناك نوع آخر من هذا الوصف الاستثنائي، وذلك في مقارنة نسـقيَّة تـنظِّم الكـلَّ مـع جزئه، فتميِّز الجزءَ على كلِّه، وتعطيه قوة الوصف المقصودة. وذلك مثل:

نفي الحدث		إيجابية
كلُّهم في قباب	إلَّا	قبَّة الملك كبيرة جداً

رأى الرحَّالة، إذن، في اختلاف الجزء عن كلِّه مسلكاً وصفياً، يجعل المتلقِّي يشاركه عملية فصلها، وتمييز اختلافها، ليصبح من السهل بعد ذلك الوصول إلى مقصديَّة الوصف وأثره، خلال وبعد عملية الوصف، فوصف خطاب أدب الرحلات موصوفاً متميِّزاً، وربط هذا التميُّز بمقارنة الموصوف الجزء بكلِّه، بهدف إظهاره وإعلاء مكانه.



قائمة المصادر والمراجع

- إبراهيم، عيسى علي، الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000.
- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج3، قدم له وحققه وشرحه وعلق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1984.
- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1996.
- ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد، رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق سامي الدهان، وزارة الثقافة، دمشق، ط2، 1978.
- ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1992.
- أبو سعد، أحمد، أدب الرحلات، دار الشرق الجديد، بيروت، 1961.
- أبو عيانة، فتحي محمد، محمد خميس الزونة، عيسى علي إبراهيم، دراسات في الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988.
- أحمد، نفيس، الفكر الجغرافي في التراث، ترجمة فتحي عثمان، دار القلم، الكويت، 1978.
- استيتية، سمير، اللسانيات المجال، والوظيفة، والمنهج، عالم الكتب الحديث، إربد، 2005.
- الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي، مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، 1961.

- البطاشي، خليل بن ياسر، الترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب، سورة الأنعام، خليل بن ياسر، دار جرير، عمان، 2009.
- براون ويول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق منير التريكي ومحمد لطفي الزليطني، الرياض، 1993.
- البقري، أحمد، أساليب النفي في القرآن، المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1989.
- الجرجاني، عبدالقاهر، أبو بكر عبدالقاهر بن محمود، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد شاكر، المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة، 1992.
- الدفاع، علي عبدالله، رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، 1993.
- حسين، محمد الخضر، الرحلات، جمعه وحققه علي الرضا التونسي، المجمع العالمي العربي، دمشق، 1976.
- خصباك، شاكر، في الجغرافيا العربية، دراسات في التراث الجغرافي العربي، مطبعة دار السلام، بغداد، 1975.
- حميدة، عبدالرحمن، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، 1995.
- خطابي، محمد، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991.
- رينيه كلوزييه، تعريب عبدالرحمن حميدة، تطور الفكر الجغرافي، دار الفكر، دمشق، 1981.
- الزناد، الأزهر، نسيج النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993.
- زياد، تقولا، الجغرافيا والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1962.
- سالم، سيد أحمد، أصول البحث الجغرافي، دراسة في إعداد الباحث والبحث الجغرافي دار الزهراء، الرياض، 2007.
- سلطان، منير، الفصل والوصل في القرآن الكريم، دار المعارف، القاهرة، 1983.

- الشامي، صلاح الدين، الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الدراسة الميدانية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1982.
- الشامي، صلاح الدين، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1993.
- صفر، البشير، الجغرافيا عند العرب نشأتها وتطورها، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.
- ضيف، شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1987.
- العاقد، أحمد، تحليل الخطاب الصحافي من اللغة إلى السلطة، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2002.
- عبداللطيف، محمد حماسة، بناء الجملة العربية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
- عبدالمجيد، جميل، البديع في البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.
- عبد، محمد، المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994.
- العجيمي، محمد الناصر، الخطاب الوصفي في الأدب العربي القديم، الشعر الجاهلي أنموذجاً، مركز الناشر الجامعي، تونس، 2003.
- العرود، أحمد ياسين، تحول الخطاب النثري في عهد النهضة، أمانة عمان الكبرى، 2005.
- العقيلي، بهاء الدين عبدالله بن عقيل، شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1997.
- عكاشة، محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، القاهرة، 2005.
- فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992.
- الفقي، صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، 2000.

- فهيم، حسين، أدب الرحلات، دراسة تحليلية من منظور أثنوجرافي، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1989.
- الفيل، محمد رشيد، أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، الجمعية الجغرافية الكويتية، نشرة دورية، الكويت، 1979.
- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، 1997.
- بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1998م.
- كراتشكوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي، ترجمة عثمان هاشم، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، 1957.
- كوين، جون، اللغة العليا، النظرية الشعرية، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة، ط2، 1999.
- لاينز، جون، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987.
- مال الله، علي محسن عيسى، أدب الرحلات عند العرب المشرق: نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1978.
- مجموعة من المؤلفين، أدب الرحلة والتواصل الحضاري، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، 1993.
- مداس، أحمد، لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، إربد، 2007.
- المدني، سليمان، أكلة لحوم البشر، عن مخطوطة لابن فضلان، دار الأنوار، دمشق، 1995.
- المسعودي، أبو حسن علي بن حسين، التنبيه والإشراف، طبعة جديدة ومنقحة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981.

- مفتاح، محمد، التلقي والتأويل،المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994.
- المقدسي، أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003.
- الملائكة، نازك، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1981.
- مودّن، عبدالرحمن، الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006.
- نصار، حسين، أدب الرحلة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، 1991.
- نمر، هادي، التراكيب اللغوية في العربية، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1987.
- يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989.
- الهمداني، لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، أشرف على طبعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، 1977.
- الهيتي، صبري فارس، الفكر الجغرافي، نشأته ومناهجه، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2005.

- **الدوريات**
- الربابعة، أحمد، إسهامات بعض الرحّالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة، عدد 1، مجلد 10، 1983.
- زيتوني، لطيف، السيمولوجيا وأدب الرحلات، عالم الفكر، مجلد 24، العدد 3، 1996.
- مجلة ديوان العرب www.diwanalarab.com
- المراكشي، محمد صالح، مفهوم الرحلة من خلال كتاب محمد بيرم الخامس «صفوة الاعتبار في مستودع الأمصار والأقطار»، حوليات الجامعة التونسية، عدد 17، 1979.

عن المؤلفة

- وُلدت نهلة عبد العزيز الشقران عام 1977 في مدينة الرمثا/ شمال الأردن.
- حصلت من جامعة اليرموك على: شهادة البكالوريوس في اللغة العربية وآدابها بتقدير امتياز (1999)، وشهادة الدبلوم العالي في أساليب تدريس اللغة العربية بتقدير امتياز (2002)، وشهادة الماجستير في اللغة والنحو بتقدير امتياز (2006)، وشهادة الدكتوراه في اللغة والنحو بتقدير امتياز (2010).
- عملت في التدريس، كما عملت أستاذةً جامعيّةً في جامعة القصيم السعودية، ومحاضِرَةً غير متفرّغة في جامعة اليرموك.
- نالت جوائز منها:
- المركز الثاني في كتابة القصة على مستوى الجامعات الأردنية ضمن مسابقة لجنة الأدب (1998) عن قصتها «الوجه الآخر»؛ المركز الثاني في كتابة المسرحية على مستوى الجامعات الأردنية ضمن مسابقة عمادة شؤون الطلبة (1999) عن مسرحيتها «فينوس»؛ المركز الثالث في كتابة القصة على مستوى الجامعات الأردنية (1999) عن قصتها «لا شيء يهمّ» ضمن مسابقة عمادة شؤون الطلبة أيضاً؛ والمركز الثالث لجائزة دبي الثقافية للإبداع/ فرع القصة التي نظمتها مجلة دبي الثقافية، عن مخطوطتها القصصية «الوجه الآخر»؛ المركز الثاني في كتابة القصة ضمن مسابقة «تجمُّع ناشرون أنا عربي» (2013) عن قصتها «صُرّة البرتقال».
- نشرت عدداً من الأبحاث العلمية، منها:
- «الثنائيات المتلازمة عند تشومسكي»، المجلة العلمية في جامعة أسيوط، العدد السابع والثلاثون، 2011.
- «ضميرا الفصل والشأن في ميزان الاصطلاح»، في مجلة آداب دمنهور، العدد السادس والثلاثون، 2011.
- «معجم الألفاظ اللغوية في أدب الرحلات»، بحث مدعوم من عمادة البحث العلمي، جامعة القصيم، 2012.
- «خطاب الحديث النبوي الشريف»، مؤتمر جامعة الزيتونة، 2013.
- صدر لها:
- «أنثى تشبهني»، قصص، الآن ناشرون وموزعون، عمّان، 2015.
- البريد الإلكتروني: n.alshgran@yahoo.com



المحتويات

إصدارات

الآن ناشرون وموزعون
ALAAN PUBLISHERS & DISTRIBUTORS

الرقم	العنوان	المؤلف	النوع	السنة
1	جمر وخمر	د.سهى نعجة	نصوص (أبيجراما)	2014
2	تناصّ	د.سهى نعجة	نصوص (أبيجراما)	2014
3	علي فودة.. شاعر الثورة والحياة	نضال القاسم وسليم النجار	دراسات نقدية	2014
4	المتاهة	أيمن توفيق	رواية	2014
5	البحث عن لغة	حسين نشوان	دراسات في الشعر والسرد	2014
6	لأنها الدنيا	رولا نصراوين	نصوص	2014
7	متحف الذاكرة الحيفاوية	د.سميح مسعود	تاريخ وتراث وذاكرة مكان	2014
8	ذات مساء ربيعي	حسين الطريفي	قصص	2014
9	الآنسة ازدهار وأنا	عدي مدانات	نوفيلا	2015
10	الشيخ عبد الله اللوزي.. حياته وشعره	عمر اللوزي	دراسة	2015
11	أنثى تشبهني	د.نهلة الشقران	قصص	2015
12	ويزهر المطر أحياناً	نيرمينة الرفاعي	رواية	2015
13	بوح السنديان	د.نزار حداد	ثقافة علمية	2015
14	حبة قمح	هاشم غرايبة	قصص	2015
15	ليس مجرد سرد.. أصل الحكاية في التراث العربي	محمد محمود البشتاوي	دراسات	2015
16	تباشير	إعداد: جعفر العقيلي	قصص ومقالات وقصائد	2015
17	فَوحُ الشَّذا: أزاهير أردنيَّة في الأدب والنقد	د.يوسف بكّار	دراسات	2015



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

د. نهلة الشقران

خطاب أدب الرحلات

في القرن الرابع الهجري



في رصدها لرحلات القرن الرابع الهجري التي امتازت بطابع خاص -حيث كثر المرتحلون وتعددت أهدافهم- تكشف الباحثة د. نهلة الشقران عن تشكل نظام لغوي عكس الوضع النفسي والثقافي لهؤلاء المرتحلين، وتقدم وصفًا لمظاهر الحضارة الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية في زمانهم.

وتبين الباحثة سمات هذا الخطاب لجهة تماسك أبنيته، واعتماده أساليب لغوية، كالتقديم والتأخير والتكرار والترادف والتقابل، والمراوحة في أوصافه بين تركيبي الإضافة والنعت. كما تميز هذا الخطاب بآليات خاصة، كآلية المقارنة التفضيلية التي أظهرت الموصوف وبينت تفرده بصور لغوية محددة، والوصل العكسي التي يوظف بها وصفًا مزدوجًا للمكان نفسه، بين الإيجاب والسلب، أو يقارنه بموصوف آخر، كي يظهره متفردًا لا مثيل له؛ فيؤنس رحالته هذا التفرد، ويخفف عنه غربة الارتحال.

الباحثة الشقران تقدم في هذه الكتاب دراسة قيمة تصطحبنا إلى جغرافيات المكان واللغة والإنسان.

حسين نشوان

